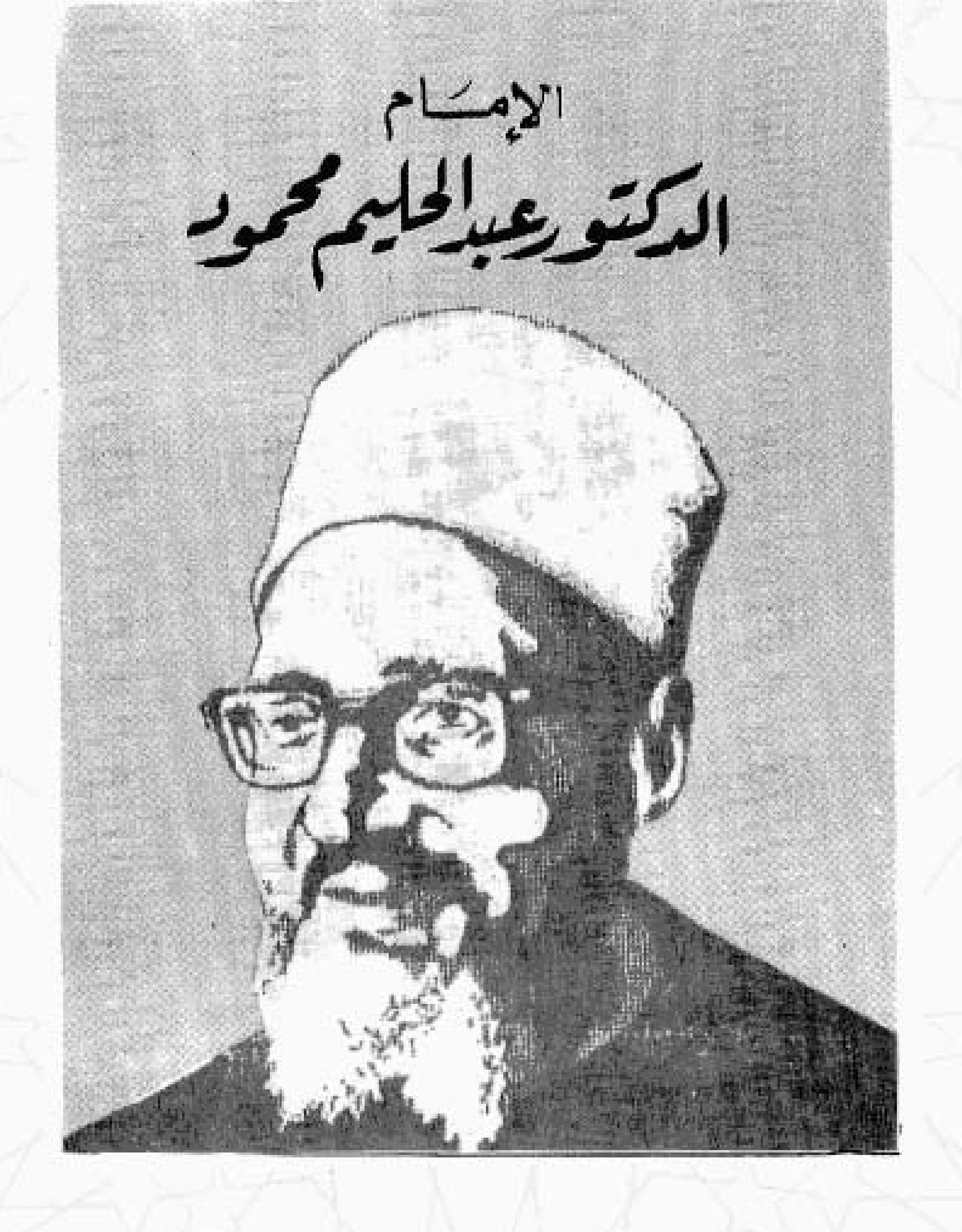


العارف بالله

أبو الأنوار شمس الدين الحفني



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلا إِنَّ أَولياءَ الله لا خَوْفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنُونَ﴾

صدق الله العظيم

[يونس : الآية ٦٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

العلاقة بين الصوفية والسلفية

إذا أردنا تعريفا دقيقًا للسلفية لا ينكره شخص من الأشخاص فيمكننا أن نقول :

إنها حب الله ، واتباع رسول الله ﷺ فيما أمر ، وفيما نهى ، والحب والاتباع مرتبطان ارتباطًا وثيقًا .

فمن أحب الله ورسوله اتبع التوجيهات الإلهية التى تنزلت على لسان الرسول ﷺ .

ولهذا الارتباط يقول القرآن الكريم : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(١) .

وإذا نظرنا إلى السلف وجدنا الصحابة يتوافر فيهم حب الله ورسوله ، ويتوافر الاتباع .

وإذا نظرنا إلى الصوفية ابتداءً من الإمام الكبير الفضيل بن عياض أو الإمام الكبير إبراهيم بن أدهم فإننا نجد أنه يتوافر فيهم « الحب » « والاتباع » .

أما فيما يتعلق بالاتباع فإن الفضيل بن عياض درس السنة دراسة دقيقة – وكان من كبار المحدثين : ثقة ، حافظًا ، ثبتًا ؛ يثق فيه

---

(١) آل عمران : ٣١ .

كل هؤلاء الذين كتبوا الحديث من أمثال الإمام البخارى ، والإمام مسلم وغيرهما من المحدثين - وكان فى سلوكه صورة تحاول - ما استطاعت إلى ذلك سبيلا - أن تحاكى ، وأن تتابع ، وأن تتأسى ، وتقتدى برسول الله ﷺ ، وما عرفته الدنيا فى يوم من الأيام ، متهالكًا عليها ، وما جرى وراء مادة - وإنما شغلته العبادة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، ونشر العلم الموضح عن أمور الدنيا والآخرة .

وكان الجميع يحترمونه ، وكان ناصحًا للأمراء ، والوزراء ، والملوك ، وكانوا يذهبون إلى بيته المتواضع ولا يذهب هو لأحد منهم .

كذلك كان الأمر فيما يتعلق بالإمام الكبير إبراهيم بن أدهم ، وسواء أكنا بصدد هذا أو ذاك فإنهما يتفقان على الخطوة الأولى عند الصوفية جميعًا ، إنها الانتفاضة الصادقة العازمة التى اتجهت بهما إلى التوبة الصادقة التى محت كل ما يمكن أن يكون من شهوات النفس ، وأهواء الشعور ، وبهذه الانتفاضة ينتقل الإنسان فى لحظة إلى القصد العازم فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، والفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، هما من الأئمة الأول للتصوف .

وعلى نسقهما ونسق من شابههما من الأئمة الأول سار الصوفية الذين أتوا من بعد ، وهؤلاء الصوفية الذين أتوا من بعد كانوا - مثل جميع الصوفية - يمتازون بأمرين متلازمين فيهما .

أحدهما : العبادة : ﴿كَانُوا قَلِيلاً منَ اللَّيْلِ مَا يَهْجعُونَ ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغفِرُونَ﴾[1] .

---

(١) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

وكانوا : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يدْعُونَ ربَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1] .

أما الأمر الثانى : فهو العلم ، وإذا نظرنا إلى كتاب من كتب طبقات الصوفية مثل كتاب « السلمى » ، الذى وصل بالتأريخ بالصوفية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى تقريبًا ، فإننا نجد جميع من ذكرهم يتسمون بهاتين السمتين « العبادة ، والعلم » بعضهم كان من كبار المفكرين أمثال « سهل بن عبد الله التسترى » .

وبعضهم كان من العلماء الذين يجمعون بين التفسير والحديث والعربية ، أمثال الجنيد ، ولكنهم جميعًا كانوا يمتازون بصفتين « العلم ، والعبادة » .

وما كان يحملهم على العبادة إلا الحب .

وما كان يحملهم على « العلم » إلا الحب .

الحب لرسول الله ﷺ ، ونشر أثره ﷺ .

فالإمام « الجنيد » .

مثلاً كان يحضر درسه اللغويون من أجل اللغة .

والأدباء : من أجل الأسلوب .

والفقهاء من أجل الفقه .

والمتكلمون من أجل مسائل علم الكلام .

والحكماء : من أجل الدقة فى تحرير المسائل .

---

(١) السجدة : ١٦ .

وكل هؤلاء كانوا من العلماء ، وكل منهم كان يستفيد من درسه في موضوع تخصصه ، وحين يتحدثون عن دروس « الجنيد » .

يقولون كان يحضر درسه ثلاث مائة محبرة ، وذلك أن جميع من كانوا يحضرون درسه ، كانوا يكتبون ما يسمعونه مما يتعلق باتجاهاتهم .

وإنه ليسرنا في هذا المجال أن نذكر أيضًا الحارث بن الأسد المحاسبي ، صاحب كتاب « الرعاية لحقوق الله » .

لقد كان شعاره « العلم » ، « والعبادة » ونزل إلى ميدان المجتمع في قوة مبينًا ، وموضحًا ، وناقدًا ، ومهاجمًا ، واقفًا كالطود الراسخ في وجه كل بدعة ، وفي كل انحراف بكتبه الكثيرة ورسائله المتعددة ، وكان شعاره دائمًا « حب الله ورسوله ، واتباع الله ورسوله » .

أما فيما يتعلق بالصلة بين الصوفية ، وأهل السنة والجماعة ، فإن صاحب كتاب « التبصير في الدين » وهو الإمام الإسفراييني ، الإمام الكامل ، والفقيه الأصولي المفسر ، وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة ، يذكر في كتابه ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو : « علم التصوف » والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق .

لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة ، والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة ؛ ويستمر الإمام الإسفراييني ، وهو من قمم أهل السنة فيقول :

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمى فى مشايخ الصوفية قريبًا من ألف وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع القدرية ، والروافض ، والخوارج .

ثم يقول هذه الكلمات الدقيقة الموزونة :

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم ، والتفويض والتبرى من النفس والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق ، والقدر إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما فى الدين ، وهو من رؤساء أهل السنة ، لا يخالف فى ذلك مخالف من المؤرخين للفكر الإسلامى .

إلى أى حد يبلغ حرص الصوفية على الاتباع ؟ وما هى آثارهم فى ذلك ؟ .

يقول أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

« من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعى » .

ويقول أيضًا : « إذا لم يواظب الصوفى على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة فلا تعبأ به » .

ومن أجمل كلماته قوله : « ما ثَمَّ كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة » .

أما أبو يزيد البسطامى فإنه يقول فى قوة حازمة ، ومنطق صادق :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

والإمام « الجنيد » يقول : « الطرق كلُّها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ، ولَزِم طريقته » .

وكان « الجنيدُ » لا يملُّ الحديثَ عن « الحبِّ » و« الاتباع » ، وكان يقول : « مَنْ لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر – أى أمر التصوف – لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنّة »

ومما يغفل الناس عنه ، ولا يتحدثون به ، لأنهم يجهلونه ، أن الإمام ابن تيمية يقدر تقديرًا عظيما الإمام عبد القادر الجيلانى ، ويتحدث عنه باحترام بالغٍ فى رسالة « العبودية » وكلما ذكره يقول : « قدَّس الله سرَّه » وللإمام « عبد القادر الجيلانى كتاب عميق فى التصوف اسمه « فتوح الغيب » وهذا الكتاب مطبوع ومتداول ، ويخصص الإمام ابن تيمية ما يقرب من مائة صحيفة لشرح بعض فقرات هذا الكتاب والإشادة بالإمام عبد القادر الجيلانى .

والإمام عبد القادر الجيلانى : هو التصوف كله ، من اعترف به فقد اعترف بالتصوف وهو يمثل مكانة الأستاذية بالنسبة لابن تيمية لأنه من أسانيد « ابن تيمية » فى الحديث ، وأسانيد المحدثين هى أستاذية لمن يتخذهم إسنادًا .

ومن ناحية أخرى فإن الإمام أحمد بن حنبل يشيد إشادة كبيرة « ببشر الحافى » ، وبشر الحافى من كبار أئمة التصوف ، وكان بينه وبين الإمام « ابن حنبل » صداقة متبادلة ، وتقديرٍ متبادل ، ويقول الإمام أحمد بن حنبل للسيدة الكريمة أخت بشر الحافى :

(من بينكم يَفيضُ الورعُ) .

وكلٌّ هذا يدلُّ على أن أئمتنا – السابقين منهم واللاحقين – مَا كانوا يفرِّقون بين السلفيَّة والصوفيَّة ...

وممَّا هو معروف أن الإمام « أبو عبد الله الأنصارى الهروى » من كبار زعماء الحنابلة كان يقول :

« أنا حنبلى ما حييتُ وإن أمت ... فنصيحتى للناس أن يتحنبلوا »

كان من أئمة الصوفية ، وللإمام أبو عبد الله الأنصارى الهروى – الذى كانوا يسمُّونه شيخ الإسلام – كتاب من أشهر كتب التصوف اسمه « منازل السائرين » يسير بالإنسان فى مقامات الصوفية ، وفى أحوالهم ، من منزلةٍ إلى منزلةٍ حتى يصلَ بهِ إلى القرب من الله سبحانه وتعالى ..

ولقد احتوى هذا الكتاب المختصر والموجز التصوف كاملاً ، مقامات وأحوالاً .

وجاء الإمام الكبير « ابن القيم » أكبر التابعين لمدرسة « ابن تيمية » فألف كتابًا ضخمًا أسماه مدارج السالكين شرح فيه كتاب « الهروى » منازل السائرين والأصل والشرح أيضًا يعبران عن التصوف كاملاً يشيدان به ، ويحثان عليه ، ويبينان أنه هو السلفية الصادقة لأنه « الحبُّ والاتباع » .

لماذا يحاول من ينتسبون إلى السلفيَّة أن يجعلوا بينها وبين الصوفيَّة فرقة واختلافًا ؟ .

نحب أن نقول فى غير إسراف أن ما يسمونه السلفيَّة الآن هو فكرة ممسوخة لا تمثل السلفية فى قليل ، ولا فى كثير ، إنهم يتحدثون

عن فوقية ، وعن جهة ، ويتحدثون عن أمور لا يتحدث فيها السلف عليهم رضوان الله تعالى .

وأيضًا نحب أن نقول : إنها أصبحت حرفة يحترفها قوم من أجل النفع المادى ، ولو لم تمسخ ، ولو لم تصبح حرفة لما حدثت هذه المناقشات ، ولما حدث هذا الجدل الذى هو سمة من سمات البعد عن السلفية فى الكتب ، وعلى صفحات الجرائد .

ويختتم الدكتور عبد الحليم محمود حديثه بقوله :

يكفى أن نرد على هؤلاء بكلمة قالها « الشيخ محمد عبده » الذى يتمسحون فيه كثيرًا وهو بصدد الحديث عن الأولياء ، وعن حال القرب قال :

« أمَّا أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ، ودعوتهم أمناء — فكثير منهم نال حظَّه من الأنس يقارب تلك الحال (حال القرب) فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفهم فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئًا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

ومن ذاق عرف ومن حُرِمَ انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجُّه الذوقُ السليم ،وانتفاعهم بباعث من الحق

الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحفُّ بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة » .

هذا ما يقوله الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد ، إنه يقول بالحرف الواحد : « من ذاق عرف » .

أمَّا هؤلاء الذين اتخذوا السلفيَّة حرفة، ولم يتذوقوا فإنهم لم يعرفوا .

ويقول : « ومن حُرِم انحرف » وهؤُلاء قد حرموا فانحرفوا .

ونرجو الله سبحانه وتعالى لهم الهداية .

وبعد : فإننا فى هذا الكتاب : نقدم شيخ الأزهر ، شيخ الإسلام والمسلمين ، الشيخ محمد الحفنى ، نقدمه مثلاً كريمًا للصوفى الصافى ، والسلفى النقى ، مثلاً كريمًا للحبِّ والاتباع » .

إننا نقدمه إمامًا من أئمة الحب والاتباع يسير على نسق أسلافه المحبين المتبعين : « عبد القادر الجيلانى » ، الهروى ، ابن القيم وعشرات غيرهم ممن كان رائدهم الحب والاتباع .

وما من هدفٍ لنا فيما نكتبُ عن التصوف إلا أن نبين الحقيقة فى الوحدة بين مذهب الحبِّ المتَّبع ، ومذهب الاتباع المحَبِّ .

وإذا كانت بعض الطبائع تركِّز دائمًا على الاختلاف : تخترعه ، وتجسمه ، وتضخمه ، وتتخذه ديدنًا وشعارًا .

فإننا نركِّز دائمًا على التوحيد والوحدة ، ونرى أنه لا يتأتى مطلقًا الحبُّ دون الاتباع .

وإنه مما لا مرية فيه بين المستبصرين أنَّ الصوفيَّة من أعلام المحبين ،

فهم إذن من أعلام المتبعين ، وأن السلفية من أعلام المتبعين ، فهم إذن من أعلام المحبين .

والنتيجة هى أن ماندعو إليه ويدعو إليه كل مخلصٍ أن نسير جميعًا فى ظلال علم :

« الاتباع والحب »

هذا وبالله التوفيق[1] .

---

(١) إنها مقدمة وهى خاتمة أيضًا .

أبو الأنوار
شمس الدين الحفنى

الشيخ شمس الدين محمد بن سالم الحفنى[1] رضى الله عنه : شيخ الأزهر ، وعلم الإسلام الخفاق !

لقد كان الشيخ شمس الدين الحفنى مصدر جاذبية عظمى فى عدة زوايا من شخصيته .

لقد كان حسن السمت أنيقًا :

وكان فى حديثه بارعًا مالكًا لزمام التوجيه !

وكان على علم غزير ، فى العلوم الكسبية ، فهو محدث مع المحدثين ، ومنطقى مع علماء المنطق ، وفقيه مع الفقهاء !!

وهو إمام على كل حال ، فى علوم الكتب التى تتصل بالدراسة فى الأزهر ؛

ولكن الجاذبية الكبرى فى الشيخ الحفنى كانت تتمثل : فى أنه شخصية تتجه بكل ما تستطيع إلى الله ، لم تفتنه الدنيا ، وقد كانت عند قدميه ، ولم يفتنه المنصب ، وقد احتلَّ رأس المناصب الدينية !

---

(١) فى كتاب الأعلام (هامش) يقول فى ترجمته للشيخ : « اشتهر صاحب الترجمة بالحفنى والحفناوى وكان يتسمى بهما ، وعندى مخطوطة من رسالته فى أسماء أهل بدر يقول فى مقدمتها : « فقير ربه المغنى ، عبد مولاه محمد الحفنى » . ونموذج من خطه : محمد بن سالم الحفناوى فكلاهما صحيح .

ويتحدث عنه الإمام « الدردير »[1] فيرسم له هذه الصورة المشرقة :

« الإمام المهيب الذى كانت الملوك تخضع لهيبته .

السخى الذى شهد الأعداءُ بهمته وسخائه ، بحيث يقر كل إنسان بأن الملوك لا قدرة لهم على أن يجودوا كما كان يجود !

الحسن الخلق الذى كان كل من جالسه لا يشبع من وداده حتى الحسود !

الجميل الذى كان وجهه كالشمس ، فى رابعة النهار ، حتى إن كل من رآه ذكر الله العزيز الغفار !

الذى كانت العامة ، والخاصة يتبركون برؤيته ، ويتسارعون لتقبيل راحته !

الجامع بين تحقيق العلوم الظاهرية ، والأسرار الإلهية !

المتكلم على الخواطر ، كما كان يشهده من سلك على يده السنية ، يربى أصحابه باللحظ والدلالة ، وله بينهم مهابة لا توجد فى كثير من الأبطال » ، كما قيل :

إذا ما سطا دع عنك تذكار عنتر   إن جاد لا تذكر مكارم حاتم

ولد رضى الله عنه ببلدة « حِفْنَا » وهى بلدة من محافظة الشرقية بمركز بلبيس ، منغمسة فى جو جميل ؛ من المزارع الخضراء ، والحدائق الغناء ، يشع فى جوها تيار من الروحانية ، لما بها من كثير من الرجال الذين ينتسبون إلى التصوف ، على أسلوب الطريقة

---

(١) أبو البركات الدردير ، سبق أن كتبنا عنه كتابًا مستقلا .

الخلوتية ، والنسبة إلى هذه البلدة هى : حِفْنىّ ، وحفنوِىّ ، وحفناوى ؛ وإليها ينتسب شيخنا .

نشأ الشيخ بهذه البلدة من أسرة كريمة شريفة ، فقد كان الشيخ شريفا حُسَيْنِيًّا من جهة أُم أَبيه ، وهى السيدة : « تُرْك » ابنة السيد سالم بن محمد بن على بن عبد الكريم بن السيد برطع المدفون بـ « بركة الحاج » .

وينتهى نسبه إلى الإمام الحسين رضى الله عنه[1] .

وكان أبوه يقيم بالقاهرة ، عندما كان الحفنى فى طفولته .

وبدأ الحفنى فى تعلم القرآن فى كُتَّاب البلدة ، وكانت هذه الكتاتيب المنتشرة فى البلاد والقرى المصرية ، إنما هى مراكز تشع أنوار القرآن الكريم ، وتشع معها أضواءُ الهداية والصلاح والتقوى ، وليس مثل القرآن الكريم مؤثرًا فى المثقف ، وفى الأمىِّ ، تأْثيرًا حسنًا يحبه الله ورسوله !

وليس مثل القرآن الكريم مؤثرًا فى إصلاح المجتمع ، وفى النهضة الاجتماعية مِنْ جميع زواياها : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2] .

إن هذه الكتاتيب ، كانت تنتشر – كالواحات النضرة ، تبعث بالنسيم الروحى ، يلطف القلوب ، وبالرَّوح يلمسُ القاحل من الأفئدة فيحيلها إلى صورة ، يعبر الله تعالى عنها فيقول :

---

(١) الجبرتى : الجزء الثانى ص ٢٥٧ .

(٢) الإسراء : ٩ .

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2] .

وقراءة القرآن لها ثوابها الجمّ ، يقول رسول الله ﷺ :

« مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنَ القرآنِ فَلَهُ حَسَنَة ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا » . أما إنى لا أقول : « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف » .

أما تعلم القرآن وتعليمه ، فيقول رسول الله ﷺ عن ذلك :

« خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » .

وهل قرأتَ هذا الحديث الفذ النفيس الرائع ، الذى رواه الحاكم وقال عنه : صحيح الإسناد :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ اسْتَدرجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْه ، غَيْرَ أَنَّه لا يُوحَى إِلَيْهِ » .

« لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد[3] ، ولا يجهل

---

(١) المائدة : ٨٣ .

(٢) الأنفال : ٢ .

(٣) يجد أى يحزن من الوجد وهو الحزن والهم (لا ينبغى أن يحزن مع من حزن) .

مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله » . وإذا اجتمع قوم لقراءة القرآن ، سواءٌ أكانوا كبارًا ، أم صغارًا ، فإنه يصدق عليهم ما رواه الإمامان : مسلم ، وأبو داود ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« ما اجْتَمَعَ قَوْمٌ فى بيت مِنْ بيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله ويَتَدَارسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيهم السَّكِينَةُ وَغَشِيتْهم الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهم اللهُ فِيمن عِنْدَهُ » .

أما من شغله القرآن فإنه ينال سؤله دون سؤال ، عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

يقول الرب تبارك وتعالى : « منْ شَغَلَهُ الْقُرآنُ عَن مَسْأَلَتى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَل مَا أُعْطى السَّائِلِينَ ، وَفَضْل كَلاَمِ الله علىَ سائِرِ الكَلاَم كَفضْلِ الله عَلى خَلْقِه »[1] .

وهذان الحديثان التاليان ، أرجو أن يتدبرهما القارئ ، ويقف عندهما طويلا ، إن كان يحب الخير لنفسه ولوالديه :

عن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ قَرَأَ القُرآن ، وَعَمِلَ بِهِ ، أُلْبِسَ والِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامةِ ، ضَوْؤه أحْسَنُ من ضَوءِ الشَّمْس فى بُيُوتِ الدُّنيا ، فَما ظَنُّكم بالَّذِى عَمِل بِهَذا »[2] .

---

(١) رواه الترمذى قال حديث حسن غريب .

(٢) رواه أبو داود ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

« يجيءُ صاحبُ الْقُرآنِ يوم الْقِيامَةِ ، فَيقُولُ الْقُرآنُ : يَارَبِّ حَلِّه ، فَيَلْبَسُ تَاجَ الكرامة ، ثم يقول :

« يَارَبِّ زِدْهُ ، فَيُلْبَس حُلَّةَ الكرامةِ ، ثم يقول : يَاربِّ ارْضَ عنه ، فَيُرْضَى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويَزْدَاد بكل آيةٍ حسنة »[1] .

فى القرآن الكريم ؟ يقول الله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[2] .

وقد سبق أن كتبنا تحت عنوان « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » ما يلى : يقول الله سبحانه عن ليلة نزول القرآن :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبَارَكة إِنَّا كُنَّا مُنْذِرين ، فيها يُفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حَكِيمٍ ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحمَةً من رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] .

وهذه الليلة المباركة هى ليلة القدر ، وعنها يقول الله سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ ألفِ شَهْرٍ ، تَنَزَّلُ الْمَلائكَةُ والرُّوحُ فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ من كُلِّ أَمْرٍ ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[4] .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه ، وابن خزيمة ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) الحشر ، من الآية : ٢١ .

(٣) الدخان من : ٣ : ٦ .

(٤) سورة القدر .

كيف حدث ذلك ؟

فى أوائل كتاب البخارى - أصح الكتب بعد كتاب الله سبحانه - وصف كيفية نزول القرآن : عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ؛ ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ !

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ !

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ !

فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾[1] وكما وصف الله سبحانه ليلة نزوله بأنها مباركة ، فإنه وصف القرآن نفسه بأنه مبارك .

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[2] .

---

(١) العلق : من ١ ، ٣ .

(٢) ص : ٢٩ .

ولقد استفاض القرآن الكريم فى وصف القرآن ، ونبدأ الحديث عن هذه الأوصاف بملاحظة نرجو القارئ أن يتدبر معناها :

إن الله سبحانه وتعالى يختم سورة « الشورى » بهذه الآيات الكريمة : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنَ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاء حِجَاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ، فَيُوحِىَ بِإِذْنِه ما يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِىٌّ حكِيمٌ ، وَكذَلكَ أوْحَيْنَا إليكَ رُوحًا منْ أمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ ، وَلاَ الإْيمانُ ، وَلَكنْ جعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ منْ نَّشَاءُ مِنْ عِبادِنَا ، وإِنكَ لَتَهْدِى إلىَ صِرَاط مستقيم ، صِرَاطِ الله الذى لَهُ ما فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرض ألاَ إلى الله تَصيرُ الأمورُ﴾[1] .

فى هذه الآيات الكريمة يذكر الله سبحانه صفتين من صفاته تعالى : « إِنَّهَ عليٌّ حَكِيمٌ » ، وهو ، سبحانه ، علىٌّ فى الأرض ، وهو علىٌّ فى السماء ، وهو سبحانه أحكم الحكماء ، إنه علىّ حكيم دون تشبيه أو تمثيل ، وبعد هذه الآيات الكريمة يبدأ القرآن مباشرة فى سورة الزخرف ، والآيات الأولى منها :

﴿حَم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعلْنَاهُ قُرْآنًا عَربيا لعَلكُمْ تَعْقِلونَ ، وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[2] وفى هذه الآيات يصف سبحانه وتعالى القرآن بالوصفين اللذين وصف بهما نفسه ، ولكنه يريد شيئًا من التأكيد .

---

(١) الشورى : ٥١ ، ٥٣ .

(٢) الزخرف : من ١ ، ٤ .

إن القرآن عَلِيٌّ : على كل ما عداه من قول : إذا نظرْت إليه من الناحية اللفظية ، وجدته فى أعلى مستوى من مستويات البلاغة ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر البشر ، لقد أعجز البلغاء فى كل عصر وتحداهم فى كل بيئة .

وإذا نظرت إليه من ناحية المعنى فإنك تجده :

﴿لاَ يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[1] .

لقد أتى الباطلُ على كتب الله السابقة حين غُيرت وبدلت ، ولقد أثبت علم تاريخ الأديان فى أوربا وأمريكا هذا التغيير والتبديل بما لا مجال للشك فيه !

لقد أثبته مثلا فى فرنسا الأستاذ « شارل جنيبير » فى عدة كتب من مؤلفاته ، والأستاذ شارل قمة من قمم التحقيق العلمى ، وقد احتل أكبر المناصب العلمية فى علم تاريخ الأديان فى فرنسا ، وهو منصب رئيس قسم تاريخ الأديان فى جامعة باريس ، وأثبته الأستاذ « لودس » ، وهو من كبار أساتذة تاريخ الأديان فى فرنسا أيضًا فى عدة كتب من مؤلفاته ، وأثبته غيرهما .

أما القرآن – فإن الأستاذ « ديمومبين » وعشرات غيره من المستشرقين الغربيين قد قالوا : إن القرآن الذى نقرؤه الآن ، هو القرآن الذى أُنزل على محمد – ﷺ ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] .

---

(١) فصلت : ٤٢ .

(٢) الحجر : ٩ .

ولم يدخل عليه الباطل من جانب المبادئ ، ولئن كان التغيير والتبديل في الكتب السابقة قد أفسد المبادئ التى أتت بها الأديان السابقة ، فإن المبادئ التى رسمها القرآن هداية للإنسانية باقية على الدهر تعلن عن مصدرها وأنها : ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(1) وأى نظرة إلى هذه المبادئ تثبت صدقها :

إنها فى التشريع ترتكز على العدالة :

﴿ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ على ألاَّ تَعْدِلُوا ، اعدِلُوا هُو أَقْرَبُ لِلتَّقوى﴾(2) .

﴿إنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِى الْقُرْبى ، وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَر والْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(3) وفى الأخلاق ترتكز على الرحمة :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾(4) .

وفى العلاقات الاجتماعية ترتكز على الأخوة : ﴿إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ﴾(5) .

وفى العقائد ترتكز على الأساس الثابت للعدل والرحمة والأخوة ،

---

(1) فصلت : 42 .

(2) المائدة : 8 .

(3) النحل : 90 .

(4) الأنبياء : 107 .

(5) الحجرات : 10 .

وهو التوحيد ، والإنسان الموحد حقًّا هو الإنسان الذى أحب الإسلامُ أن يكون مثلاً للإنسانية أجمع .

وفى الآيات الكريمة التى نحن بصددها وصف القرآن : بأنه نور من أسماء الله « النور » .

ويقول الله سبحانه ﴿قَ ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] ، ويقول : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾[2] ، ومن أسماء الله « المجيد » .

ومن أوصاف القرآن أنه عزيز : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عزيزٌ﴾[3] ، ومن أسماء الله تعالى : « العزيز » .

وفى نهاية الحديث عن هذه الأوصاف التى سُجلتَ فى القرآن والحديث ، نتبين أن الله سبحانه وتعالى أقسم على وصف نفيس للقرآن : هو أنه كريم ، وهو أيضًا وصف يعبر عن اسم من أسمائه سبحانه وتعالى :

﴿فَلا أُقسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ من رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4] .

يقول صاحب « لطائف الإشارات » : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ والكرم نفى الدناءة ، أى أنه غير مخلوق ، ويقال هو قرآن كريم ، لأنه

---

(١) ق : ١ .

(٢) البروج : ٢١ .

(٣) فصلت : ٤١ .

(٤) الواقعة : من ٧٥ — ٨٠ .

من عند رب كريم على رسول كريم على لسان ملك كريم : ﴿فى كتاب مكنونٍ﴾ يقال فى اللوح المحفوظ ، ويقال فى المصاحف وهو محفوظٌ عن التبديل : ﴿لاَ يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصى ، وقال هو خبر فيه معنى الأمر ، أى لاينبغى أن يمس المصحف إلا من كان متطهرًا من الشرك ، وعن الأحداث ، ويقال : لايجد طعمه وبركته إلا من آمن به ، ويقال : لايقربه إلا الموحدون ، فأما الكفار فيكرهون سماعه فلا يقربونه ، وقرئ : ﴿ المطهرون﴾ أى الذين يطهرون نفوسهم عن الذنوب والخلق الدنىء ويقال : لا يمس خيره إلا من طهر من الشقاوة ، ويقال لا يفهم لطائفه إلا من طهر سره ، ويقال : المطهرون سرائرهم عن غيره ، ويقال : إلا المحترمون له القائمون بحقه ، ويقال : إلا من طهر بماء السعادة ثم بماء الرحمة .

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن القرآن فى استفاضة ، ومن عدة زوايا ، ونقتصر هنا على ذكر أربعة أحاديث :

١ – عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ قرأ الْقُرآنَ فَقَد استدْرجَ النُّبُوَّة بَيْنَ جَنْبيْه ، غَيْرَ أنَّهُ لاَ يُوحَى إلَيْهِ ، ولاَ يَنبغى لصاحبِ الْقُرآنِ أنْ يَجِد مَع مَنْ وجَدَ ولاَ يَجْهَل معَ مَنْ جَهلَ وفى جَوْفه كلام الله » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٢ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدبةُ الله فَاقبَلوا مأدبتَه مَا استَطَعْتم ، إنَّ هَذا الْقُرْآن حَبلُ الله ، والنُّور المبينُ ، والشِّفاء النَّافع ، عصْمَتهُ لمن تَمَسكَ بِهِ ، ونَجَاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوجّ فيقوم ، ولا تَنقَضى عجائبه ، ولا يخلق عن كَثْرَة الرَّد ، اتلوه فإنَّ الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول (ألم) حرف ولكن ألفٌ حرف ، ولاَم حرف ، وميمٌ حرف » رواه الحاكم وقال : هو صحيح .

٣ – عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ لله أَهلِينَ منَ النَّاسِ : قَالُوا : مَنْ هُمْ يَارَسُولَ الله ؟ قال : أهْل الْقُرْآنِ هُمْ أَهلُ الله وخاصَّتُه » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم ، وقال المنذرى : إسناده صحيح .

٤ – عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« إنَّ الَّذى لَيسَ فى جَوْفه شىءٌ مِنَ القُرآنِ كالْبَيْتِ الخَرب » رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

ولقد نهض القرآن بالأمة الإسلامية نهضة لامثيل لها فى التاريخ حينما طبقته تحت قيادة الرسول ﷺ ، وأخرجته عن وضع النظريات إلى الواقع المطبق فى المجتمع ، ولقد كان مجتمعًا تبطن والتحف التوحيد .

وهذا المجتمع القرآنى فعل الأعاجيب ، وفى ذلك يقول المستشرق دى بور :

« أفلح محمد ﷺ هو وخلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان

وعلى فى أن بعثوا فى نفوس أبناء الصحراء ، وفى نفوس من هم أكثر منهم تحضرًا من أهل البلاد الواقعة فى الأطراف : روح الاتحاد فى العمل ، وإلى هذا البعث الروحى يرجع الفضل ، فى المكانة التى يتبوّؤها الإسلام ، كدين عالمى ، ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر ، وكأنما تأييده لهم استجابة لندائهم عند لقاء الأعداء : « الله أكبر » وكأنما قد صغرت رقعة الدنيا فطووها فى فتوحهم طيًّا ، ولم يمض زمن طويل حتى فتحت بلاد الفرس كلها وانتزع العرب من الإمبراطورية الرومانية الشرقية أحسن ولآيتَيْنِ فيها : وهما الشام ومصر .

إن هذا المستشرق يرى أن هذه الفتوحات – التى كانت – لنشر الخير والحق لا تفسر إلا بأحد أمرين :

إما أن تكون الكرة الأرضية قد صغرت فى عهدهم ، فحاموها بهذه السرعة ، وإما أن الأرض كانت تطوى من تحت أرجلهم ، ولكنه الإيمان ، ولكنه مجتمع القرآن .

ومجتمع القرآن يتسم بصفتين :

الأولى : أنه مجتمع قوى .

الثانية : أنه مجتمع سعيد .

وذلك أن الله – سبحانه وتعالى – قد رسم فى القرآن طريق العزة بالله ، ورسم طريق السعادة فإذا طبق المجتمع المبادئ القرآنية فى أى عصر من العصور ، فإنه يسعد وينهض .

والأمة الإسلامية فى العصر الحاضر لاسبيل لنهضتها إلا إذا أسلمت

قيادها للقرآن الكريم ، تستمد منه الطريق إلى السعادة والقوة ، ولن يصلح أمر هذه الأمة فى عصر من عصورها إلا بما صلح به أولها . وإن كبار علماء المسلمين على مرّ العصور يعلمون هذه الحقيقة ، إنهم يعلمون أنه لا نجاة ولا إنقاذ للأمة الإسلامية إلا بالقرآن — فعكفوا عليه مفسرين وموضحين ومستنتجين وداعين به إلى الله وهادين به إلى الحق فجزاهم الله أحسن ما يجزى العلماء عن أمتهم .

وإننا فى فترة النهضة هذه من حياة أمتنا ، ندعو الله سبحانه أن يوفق الأمة الإسلامية للأخذ بوسائل السعادة والقوة ، وندعو زعماء العالم الإسلامى إلى أن يكون القرآن الكريم أساس النهضة الاجتماعية حتى تكون الأمة الإسلامية قوية سعيدة » أ . هـ

ونعود — بعد أن ذكرنا ما سبق نشره — فنقول :

كانت الكتاتيب منتشرة فى جميع أرجاء القطر المصرى ، وكان ضوءُ القرآن يشع من كل مكان فى القطر المصرى ، وكان فى القلوب تقوى وفى النفوس ورع ، وفى السلوك استقامة ، وفى الناس وداعة : وذلك كله من آثار أضواء القرآن .

والقرآن يفيد الإنسان مبادئ الدين ، ويفيدهُ شعورًا ومعرفة بأسمى قواعد الأخلاق ، أما العقيدة : فإنها العقيدة التى أحبها الله للأمة الإسلامية :

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ : لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾[1] :

---

(١) آل عمران : ١٨ .

﴿وما أرْسلْنا من قَبلكَ مِن رَّسُولٍ إلا نُوحِى إلَيْهِ أنَّهُ : لا إلهَ إلا أنَا ، فَاعْبُدُون﴾[1] .

إنها عقيدة التوحيد الخالص المطلق :

﴿قُلْ : هُوَ الله أحَدٌ ، الله الصمَدُ ، لَمْ يلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، ولَمْ يكُن لَّهُ كُفوًا أَحَدٌ﴾[2] .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَدًا سُبْحانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[3] .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَن وَلَدًا ، لَّقَدْ جِئتُمْ شَيْئًا إدًّا ، تَكَادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْن مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأرْضُ وتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ ولَدًا ، وَمَا يَنبَغى للرَّحْمَنِ أن يَتَّخذَ وَلدًا ، إن كُلُّ مَنْ فى السَّمواتِ وَالأَرْضِ إلاءاتى الرَّحْمنِ عبْدًا﴾[4] .

إنها عقيدة التوحيد فى صفائها ونقائها ونضرتها وسموها ونفاستها . أما التشريع فإنه :

﴿لاَ يَأْتيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَديْهِ وَلا مِنْ خلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكيمٍ حميدٍ﴾[5] .

وإذا تعلم الإنسان القرآن أفاده أسلوبًا عربيًا ممتازًا ، وأفاده معرفة

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الأنبياء : ٢٦ .

(٤) مريم ، الآيات من : ٨٨ - ٩٣ .

(٥) فصلت : ٤٢ .

باللغة العربية فى مفرداتها وفى تراكيبها ، ولن نجد كاتبًا عربيًا ممتازًا أو أديبًا له أصالته إلا وكان السر فى ذلك معرفته بالقرآن ، مفردات وتراكيب ، وما دخلت كلمات من القرآن فى أسلوب كاتب إلا وأشرقت وأضفت على الأسلوب أثارة من البهاء .

كانت الكتاتيب تُؤَدِّى رسالة ضرورية للأمة الإسلامية : دينًا ، ولغة ، وأخلاقًا .

وأخذت هذه الكتاتيب تتناقص شيئًا فشيئًا إلى أن كادت تنتهى .

وما من شك فى أن أهل الخير ، فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى ، كثيرون ، ولعلَّهم لم يتنبهوا فيما مضى إلى خفوت نور القرآن بتناقص الكتاتيب ، ونرجو أن يكون هذا تذكرة لهم للإسهام فى فتح هذه الكتاتيب من جديد ، يتدرجون بها إلى أن تعم القطر المصرى ، كما كانت ، وإن كل من يسهم فى فتح أحد الكتاتيب ، فإن له الثواب الجزيل عند الله تعالى ، لأنه يسهم فى نشر كلامه المبارك وفى توعية الناس بدينهم ، وفى زيادة الشعور بالتقوى .

ومن الأمور المؤسفة : أن كثيرًا من أهل الخير أوقفوا أموالاً كثيرة على تعلم القرآن ، وعلى الكتاتيب واستولت وزارة الأوقاف على هذه الأوقاف ، وأكلتها ، لم ترع فى ذلك حرمة الوقف ، ولم ترع فى ذلك حرمة القرآن ، وما زالت على مرّ السنين تأكلها : ولا تفكر فى توزيعها على الكتاكتيب الموجودة ، ولا فى إنشاء كتاتيب بها ، وقد ألف رجال الوزارة ذلك حتى وصل الأمر إلى أن وزراءَ

الأوقاف ، الذين يحبُّون خدمة القرآن ، لا يتنبهون إلى هذه الأوقاف التى يستفيد منها المشرفون عليها ، ولا يكتفون بالأكل منها ، وإنما يأكلونها ، يُؤكلونها لأتباعهم وعملائهم : وهم إنما يأكلون فى بطونهم نارًا .

ومن الأمور المؤسفة أيضًا أن وزارة التربية : لا تشعر بفائدة القرآن من أجل اللغة ، ولا تشعر بفائدة القرآن من أجل الأسلوب ، ولا تشعر بفائدة القرآن من أجل العقيدة ، ولا تشعر بفائدة القرآن من أجل الأخلاق ، ولا ولا ... وكأن الله جعل من بين أيديهم سدًّا ، ومن خلفهم سدًّا فأغشاهم فهم لا يبصرون .

وعلى الرغم من أنه يتولى وزارة التربية من آن لآخر وزير صالح فإن بطانته تستمر فى تعمية الأمر ، فلا تنصح له ، ولا تنير له الطريق ، ولو أسلمت وزارات التربية فى العالم الإسلامى لأفادت المجتمع الإسلامى علمًا ودينًا ، وأخلاقًا ، وأسهمت إسهامًا فعالاً فى نشر الأمن والطمأنينة : على الأنفس والأعراض والأموال ، ونرجو الله لها الهداية والتوفيق .

ونعود إلى الشيخ الحفنى .

لقد تعلم القرآن فى كتاب البلدة ، إلى سورة الشعراء ، وكان والده كما قلنا مقيمًا بالقاهرة ، فاستقدمه إلى القاهرة ليكون تحت رعايته ، وأخذ الغلام فى حفظ القرآن إلى أن استكمله ، ثم أخذ يسير فى التعليم على النهج المتبع .

وكان فى النهج المتبع كثير من الحكمة المنبعثة عن التجربة ، لقد

أبانت التجربة أن خير وسيلة لتعلم علم الأزهر ، إنما هو البدءُ بحفظ المتون » .

والمتون : هى كتب فى كل فن : مختصرة ، موجزة ، مركزة تركيزًا قويًا بحيث أصبح بعضها - من شدة التركيز - وكأنه ألغاز .

هذه المتون تحفظ عن ظهر قلب ، وهى بطبيعة الحال صغيرة الحجم نسبيًا ، وفى بعض الأحيان لاتعدو أن تكون ورقات قليلة .

وكانت الطريقة أن يكتب العلماءُ على المتون شروحًا توضحها وتشرحها مفصلة ما أجمل ، وموضحة ما استغلق ، ومبينة ما يشبه أن يكون - فى المتون - إشارات ، وفى كثير من الأحيان يكتب العلماءُ حواشى على الشروح .

وكان المتن الواحد يكتب علية عدة شروح ، والشرح الواحد تكتب عليه عدة من الحواشى ، ويجتهد جميع الباحثين فى التمحيص والتحرير والوصول إلى الغاية فى الدقة .

كان الطلبة يحفظون المتون ، وكان المدرسون يدرسون الشروح ولا يغفلون الحواشى وحفظ فتانا المتون ، لقد حفظ :

أَلْفِيَّة ابن مالك ، وهى خير متن فى النحو والصرف ، وعليه شرح ممتاز هو شرح ابن عقيل .

وحفظ السُّلَّم فى أصول الفقه .

والْجَوْهرة فى التوحيد .

والرَّحبيّة .

وأبا شُجاعٍ : فى الفقه الشافعى وهو متن مشهور ما زال يدرس فى الأزهر للآن ، وحفظ غير ذلك من المتون .

وكل ذلك قبل أن يبدأ الدراسة فى الأزهر .

بعد حفظ المتون بدأ فتانا يدرس على أعلام العلم فى الأزهر ، وكان الأزهر إذ ذاك – كما هو فى كل عصر – يقوم على طائفة من أعلام العلماء أخلصوا وجوههم لله ، ثم للعلم ، ووطنوا أنفسهم على أن يكونوا جند الله يحفظون على لغة القرآن ، ويجندون أنفسهم من أجل نشر قواعد الدين الإسلامى ، مفسرين للقرآن ، شارحين للحديث ، مبينين لمسائل الفقه ... موضحين للدين فى جميع زواياه ، وكانوا – ومازالوا – يرقبون المجتمع بعين يقظة ، حتى لا ينحرف عن الجادة : يبذلون فى ذلك كل ما يستطيعون .

وإذا كان الشيطان وأعوانه ، والنفس وأهواؤها يفسدون جهدهم ، وإذا كان المنحرفون فى المجتمع يسعون فى الأرض فسادًا ، ويقفون فى كثير من الأحيان عقبة فى سبيل الهداة ، فإنه مما لا شك فيه أن لعلماء الأزهر دورهم الضخم فى الإبقاء على الدين ، واللغة العربية ، ورسول الله ﷺ يقول :

« لاَ تَزَال طَائفةٌ من أُمَّتِى ظَاهِرين عَلَى الْحَقِّ لاَيَضُرُّهم مَنْ خَذَلهم وَلاَ مَن نَاوَأهم حتى تقوم السَّاعة » .

إن هذه الطائفة هم أهل الله من علماء الأزهر ومن سار على نهجهم فى بلاد الإسلام .

وكانت الدراسة فى الأزهر : حرة طليقة ، تتناسب حقًا مع ما يجب للعلم ، من مكانة سامية .

كان الأستاذ يختار المادة ، والمستوى ، والكتاب ، والزمن .

وكان التلميذ يختار هو أيضًا : المادة ، والمستوى ، والكتاب ، والزمن ، ويزيد على ذلك أنه كان يختار الأستاذ الذى يرى أنه أكثر فائدة له .

وكانوا يبدءُون الدرس بعد صلاة الفجر مباشرة ، وقد أدركنا نحن شيئًا من ذلك ، فلقد كنا نحضر درس المرحوم العالم الكبير العارف بالله فضيلة الشيخ الدجوى ، فى الرواق العباسى ، بعد صلاة الفجر ، وكان درسًا فى التفسير ، وكان درسًا رائعًا حقًّا ، وكان درسًا يجمع بين الدراسة الكسبية والإلهامات الربانية ، وإنه مما يؤسف له أنه لم يدّون أحد هذه الدروس ولو دونت لأفادت علمًا ، وأفادت دررًا من الإلهامات .

دخل فتانا الأزهر يتلقى العلم على أعلام الأزهر النابهين فتتلمذ على :

الشيخ أحمد الخليفى .

والشيخ محمد الديربى

والشيخ عبد الرءوف البشبيشى وغيرهم ، وغيرهم .

بيد أن الذى كان له أثر كبير فى حياة فتانا العلمية الكسبية ، إنما هو الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، الشهير بابن الميت[1] .

---

(١) انظر الجبرتى جـ ٢ ص ٢٥٨ .

لقد أخذ عنه تفسير القرآن الكريم ، والقرآن هداية ، يرسم للإنسانية - الإنسانية جمعاء - عقيدتها ، ويبين لها أخلاقها - أسمى ما تكون الأخلاق وأصفاها - ويفيد العربى لغة ، ويفيده أسلوبًا - أبلغ وأفصح ، ما يكون الأسلوب : إنه الأسلوب الإلهى فى روعته وجماله وإشراقه ؛ وتتلمذ عليه فى الحديث : والحديث مبين للقرآن الكريم :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] .

وقد بيّنه رسول الله ﷺ بقوله ، وبيّنه بحاله ، وبيّنه بسلوكه ؛ ولقد كانت أقوال رسول الله ﷺ وأحواله وأعماله : أضواء قرآنية وأنوارًا ربانية ، ولم تكن دراسته مع شيخه للحديث دراسة موجزة ، وإنما كانت مستفيضة جدًّا ؛ لقد درس عليه :

١ - صحيح البخارى ، ورضى الله عن إمامنا البخارى ، ونضر الله وجهه ، جزاء ما بذله من جهد ، ووقت فى جمع الصحيح الثابت ، من كلام رسول الله ﷺ ، وإننا لا نستطيع أن نوفى الإمام البخارى حقه من الثناء والمدح على قيامه بما قام به ، من خدمة السنة ، ولا نملك إلا أن ندعو الله تعالى أن يحشره مع من رضى عنهم من النبيين والصديقين .

ونحن حينما يُذكر الإمام البخارى : إمام المحدثين وشيخهم فى كل عصر ، لا يفوتنا أن نذكر أن بعض المفتونين المغرورين بأنفسهم وبأهوائهم حاولوا فى العصر الحاضر أن ينالوا من الإمام البخارى ، وقد ذكر ذلك لأحد شيوخنا الأفاضل فقال :

---

(١) النحل : ٤٤ .

إن الخنافس إذا سولت لها نفسها أن تنال من الأسود ، فإن ذلك لا يخرجها عن نوعية الخنافس ، وعن أنها خنافس ، وسوف لا تشعر الأسد بها ، وإذا شعرت الأسود بها ، فإنها تبتسم فى سرية وازدراء ويذكرنا موقف الذين ينالون من الإمام البخارى : خادم السنة ، وشيخ المحدثين بقول الله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[1] .

وبقوله تعالى :

﴿أفَمنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسنا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ منْ يَشَاءُ ويهْدِى منْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يصْنَعُونَ﴾[2] .

٢ – ودرس فتانا الحفنى صحيح مسلم ، ولقد قام الإمام مسلم فى خدمة السنة بمثل ما قام به الإمام البخارى : ولكل منهما منهجه وطريقته ، ونرجو الله للإمام مسلم ما رجوناه للإمام البخارى : أن يحشره مع من رضى عنهم من النبيين والصديقين .

ودرس فتانا فى مجال السنة أيضًا :

٣ – سنن أبى داوود .

٤ – وسنن النسائى .

٥ – وسنن ابن ماجه .

---

(١) الفرقان ، آية : ٣١ .

(٢) فاطر ، آية : ٨ .

٦ – ودرس الموطأ للإمام مالك .

٧ – ومسند الإمام الشافعى .

٨ – ومعاجم الطبرانى : الأكبر ، والأوسط ، والصغير .

٩ – ودرس صحيح ابن حبان .

١٠ – ودرس : المستدرك للنيسابورى .

درس كل هذه الكتب فى السنة .

وقد كان الأزهر فى أيام فتانا معْنِيًا بالسنة كل العناية لا يدرسها فى مختصرات ، أو موجزات ، أو مختارات ، وإنما يدرسها فى الأمهات الأصيلة :

إن السنة : دعوة بالحسنى إلى الرقى الأخلاقى الذى تجرى وراءه الإنسانية المهذبة ، إنها دعوة إلى التاجر أن يكون صادقًا ، فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء .

وإلى العامل أن يتقن عمله ، لأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

وإلى الصانع أن يؤدى العمل كما يجب ، حيث أخذ الأجر ، ومن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل .

وهى دعوة إلى الأب ، باعتباره أبا ، وإلى الأم فى وضعها كأُم ، وإلى الأخ فى مهمته كأخ ، وإلى غيرهم من أفراد المجتمع : أن يرعى كل منهم ما وكل إليه من أمر رعيته ، لأنه مسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

وهى دعوة للناس إلى الأمانة ، حيث أنه « لا إيمان لمن لا أمانة

له » . وإلى الصدق ، « وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا » وإلى الرحمة : الرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال : « إنما أنا رحمة مهداة » .

ومن قال : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ؟

وخذ أى خلق كريم تتمنى أن يسير عليه المجتمع : فستجد فى السنة دعوة إليه ، بوسيلة وبأخرى ، وبثالثة .

وهى فى هذه الدعوة تنبه دائمًا إلى دور الأمة الإسلامية فى الأخلاق العالمية : إن دورها : إنما هو دور الرائد الداعية وعلى الرائد دائمًا أن يكون المثل الأعلى . والأسوة الكريمة ، والقدوة الصالحة .

ولقد كان رسول الله . ﷺ : الصورة الحيّة الناطقة التى طبقت — كمبادئ إنسانية ممكنة — الخلق الذى رسمه الله وأحبه للإنسانية جمعاء ، والذى عبرت عنه السنة أجمل تعبير وأبلغه .

ومن أجل هذا التقدير الكريم للسنة الشريفة كان العلماءُ المستنيرون فى كل عصر : يجاهدون من أجلها ، ومن أجل مكارم الأخلاق التى تعبر عنها ، وكان هؤلاء العلماء — علماء السنة — يعرفون بسيماهم : فقد كانوا من الزهد فى حطام الدنيا : بحيث لا ينازعون الناس فى دنياهم .

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين ، وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم ، وكانوا مشغولين عن السلطان

بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاءُ : مالك الملك ذى الجلال والإكرام .

وكانوا صادقين ، لقد كان الصدق ديدنهم وفطرتهم .

وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل : لقد أقاموا نهارهم ، وأسهروا ليلهم ، عملاً على مرضاة الله ورسوله ﷺ .

والمثل الذى نحب أن نسوقه — كصورة لهؤلاء القوم — هو : الإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه ، إنه المحدث الذى حاول أن يكون صورة صادقة لما كان عليه الرسول ، ﷺ فى الزاوية الأخلاقية :

وسيرة الإمام ، رضوان الله عليه : مثل أعلى فى التمسك بما يراه حقًّا ، وفى الصبر على ما يناله فى سبيل التمسك بالحق .

على أن كل من تشبع بالسنة حقًّا : إنما هو صورة ، قريبة بقدر المستطاع ، من الإمام أحمد .

ولقد كان الإمام البخارى وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة : أمثلة كريمة للخلق الكريم .

والأمثلة الكريمة للخلق الكريم هى دائمًا هدف لسهام النماذج الأثيمة التى استهواها الشيطان فى قليل أو فى كثير : إنه النزاع الدائم بين الفضيلة وأصحابها ، وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال .

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق فى كل عصر لفقدت الإنسانية الثقة بنفسها ، ولما اطمأن إنسان لإنسان ، ولما وثق شخص بآخر .

لقد ربت السنة رجالاً ، وخصائصها التى ربت بها الرجال ما تزال موجودة فيها ، لأنها من طبيعتها ومن ذاتها ، ولقد شاهدت الإنسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال ، وأولتهم ثقتها وتقديرها .

إن الإمام أحمد بن حنبل ، وإن الإمام البخارى ، وإن أمير المؤمنين فى الحديث : الإمام سفيان الثورى ، وأمثال هؤلاء ، رضى الله عنهم : منارات يهتدى بهم عشاق المثل العليا الأخلاقية .

لابد إذن من العمل على نشر السنة وإذاعتها ، ومحاولة الإكثار من النفوس التى تتشربها وتحققها وتتمثلها وتحياها .

لابد من نشرها : وطنية .

ولابد من نشرها : إنسانية ، لأنها تعبر عن أرقى مستوى إنسانى .

ولابد من نشرها : دينًا .

ولابد من نشرها : ذوقًا أدبيًا .

ولابد من نشرها : للثروة اللغوية .

وما من شك فى أن للسنة جوًا فكريًا : فالرسول ، ﷺ : يتحدث عن إصلاح المجتمع ، وعن عوامل الهدم ، التى تعمل على تقويضه ، وعن عوامل البناء التى تعمل على إقامته على قواعد سليمة ، ويتحدث عن النظم التى ينبغى أن تسود المجتمع الإنسانى ، وعن الأوضاع التى يجب أن تستقيم .

وللسنة جو لغوى : فالرسول ، ﷺ قد أوتى جوامع الكلم ، وكلامه ، ﷺ : أبلغ الكلام البشرى ، ونشر السنة عامل من أهم العوامل على ترقية اللغة التى يكتب بها الكتاب ، ومن أهم العوامل

على وضع الناشئين والمثقفين فى وضع أدبى ممتاز ، من حيث اللغة ، ومن حيث الأسلوب .

وللسنة جو روحى : إنها تهذيب للنفس ، وتربية للروح وسمو بالأخلاق إلى درجة لاتجارى ، وصلى الله وسلم على من قال :

« إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ » .

ورحم الله شوقى إذ يقول :

إنما الأمم الأخـلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أجل ذلك كله كان نشر السنة واجبًا دينيًّا ، وعملاً اجتماعيًّا كريمًا ، وواجبًا وطنيًّا حتميًّا وإصلاحًا أخلاقيًّا ساميًا .

وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة فى عصر تحاول الرذيلة فيه أن تعمم الانحلال الخلقى فى كل أسرة ، وفى كل بيت ، ويحاول الفساد أن يأتى على مقدسات الأمة ومقوماتها : من عرض وشرف وكرامة .

لقد أحب الله للإنسانية مثالا أخلاقيًا كريمًا رسمه سبحانه فى القرآن الكريم قولاً ، فكان الرسول ﷺ الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الإلهى ، وكان بذلك الإنسان الكامل .

لقد كان المثل الأعلى فى الرحمة ، والمثل الأعلى فى الكفاح ، والمثل الأعلى فى الصبر الجهاد المتفائل ، والمثل الأعلى فى الصدق وفى الإخلاص وفى الوفاء ، وفى البر وفى الكرم :

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[1] .

ولا ريب فى أن الأمة الإسلامية حينما تقتدى بالرسول ﷺ : إنما تقتدى بأعظم البشر رجولة وإنسانية .

وتقتدى بمن أحب الله سبحانه أن تقتدى به :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فى رسُولِ الله أُسْوةٌ حَسَنَةٌ ، لِّمَنْ كَانَ يرْجُو الله والْيَوْمَ الآخِرِ ، وَذَكَرَ الله كَثيرًا﴾[2] .

وإن العمل على نشر السنة إنما هو توجيه للاقتداء بالرسول ﷺ .

وإذا كانت السنة تحتل هذه المكانة الضخمة ، فى منهج دراسة الأزهر ، فإن مادة أخرى فى غاية النفاسة كانت تحتل أيضًا مكانة لابأس بها وهذا من الطرافة ، ومن الحكمة بمكان : تلك هى مادة التصوُّف .

مادة التصوف : موضوعًا أخلاقيًا ، ومادة التصوف منهجًا سلوكيًا ، ومادة التصوف : تزكية نفسية ، وكذلك أيضًا مادة التصوف : رجالاً أخلصوا دينهم لله !

والتصوف له كتبه كموضوع وهى كثيرة كثرة مرضية .

وله رجاله كشخصيات ، أخلصوا وجوههم لله تعالى ، وأصبحوا مثلاً كريمة فى العلم وفى تزكية القلوب .

وكان الأستاذ فى الأزهر يختار – إذا شاء – كتابًا فى الموضوع ،

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

أو يختار – إذا شاء – كتابًا عن الشخصيات ، أو يختار كتابين أحدهما عن الموضوع والآخر عن الشخصيات .

ولقد اختار الشيخ محمد البديرى كتابين : أحدهما فى الموضوع ، والآخر فى الشخصيات وهما من أنفس ما كتب فى الموضوع والشخصيات إن لم يكونا أنفسها .

أما الكتاب الخاص بالموضوع فهو كتاب :

إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى .

ودرس فتانا فى انتباه ، وفى متعة روحية ، وفى تقدير كبير ، كتاب الإحياء على الشيخ : محمد البديرى وكتاب الإحياء أهم كتب الإمام الغزالى ، ولقد قال فيه الإمام النووى :

« كاد الإحياء يكون قرآنًا »

وقد ألفه الإمام « الغزالى » فى الفترة التى اعتزل فيها الناس متعبدًا ، ومما يؤيد ذلك ، مارواه الإمام « أبو بكر بن العربى » فى كتاب « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام ، فى جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة ، وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية ، من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحوًا من خمسة أعوام .. فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذى سماه : « الإحياء لعلوم الدين » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التى من أجلها ألف الإمام : « كتاب الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بالهدف الذى من أجله ألف كتاب « الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه ، فإن ذلك كله يتلخص فى كلمة واحدة هى : الإخلاص .

ولقد روى « ابن الجوزى » أن بعض أصحاب « أبى حامد » سأله قبيل الموت قائلا :

« أوصنى؟ فقال له عليك بالإخلاص، ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص ؟ !! لقد تلفت « أبو حامد » يومًا إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصيت ، والجاه ، والمنزلة عند الناس ، وعند الحكام ... وانتفض « أبو حامد » انتفاضته التى وضع بها نفسه فى محيط الإخلاص .

وتلفت « أبو حامد » - بعد ذلك - فيما حوله ، فوجد أن الناس صُمٌ ، بُكْمٌ ، عُمْى ، عن قوله تعالى : ﴿أَلاَ لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1] .

وعن قوله تعالى : ﴿وَمَا أمِروا إلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿فَادْعُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدين﴾[3] .

وغَيْر ذلك من الآيات الكثيرة التى تدعو إلى الإخلاص فى الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهى فى دعوتها إلى الإخلاص إنما تدعو إلى : « التوحيد » !

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) البينة : ٥ .

(٣) غافر : ١٤ .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان وأصبح الدين فى نظر بعض علمائه ، فضلاً عن غيرهم – فتوى حكومية ، أو جدلاً للمباهاة والغلبة والإفحام أو سجعًا مزخرفًا ، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى « أبو حامد » ذلك ، ألف كتابه النفيس .

وألف ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد مادرج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الإخلاص أساسًا ، وشعارًا ، وما من شك فى أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك فى أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامى ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته .

وألَّف الإمام كتابه إذن ، ليبين فيه الإخلاص : أسسًا ، ونتائج ، وأسبابًا وغايات ورتب الكتاب أقسامًا ، والأقسام كُتُبا ، والكتب أبوابًا ، والأبواب فقرات .. كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهى أربعة :

١ – قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها : كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التى يحبها الله سبحانه ، ورسولهُ ، ﷺ .

٢ – قسم العادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ودقائق سنتها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ – قسم المهلكات : – وهى الأخلاق المذمومة ، التى ورد القرآن بتطهير القلب منها : يُعرِّفُ بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرف العلاج منها .

٤ – قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التى بها يكتسب ، والثمار التى تجنى من التخلق به .

وهو فى كل هذه الأقسام : يبتدئ كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

أما عن تقدير هذا الكتاب ، فإن الإمام الحافظ العراقى يقول :

« إنه من أجلِّ كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتجر فى اللجة ، بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما في أحسن المواطن وسبك فيه نفائس : اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النَّمط أوسطه ، مقتديًا بقول « على » كرم الله وجهه « خير هذه الأمه النَّمط الأوسط يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » .

وقال « الزبيدى » شارح « الأحياء » :

« وأنا لا أعرف له نظيرًا فى الكتب التى صنفها الفقهاءُ الجامعون فى تصانيفهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر » .

وقال « ابن السبكى » :

« وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل من ينظر فيه إلا ويتعظ به فى الحال » .

وقال الشيخ « عبد القادر العيدروس » فى كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » .

اعلم أن فضائل « الإحياء » لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى .

وكان « عبد الله العيدروس » رضى الله عنه يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه قال : مكثت أطالع كتاب « الإحياء » كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة ، غير التى قبلها ؛ ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه :

« عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة : أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية ، خصوصًا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس » وقد ألزم الشيخ « عبد الله العيدروس » أخاه قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمسًا وعشرين مرة !

ونختم هذه التقديرات برأى أعتقد أنه فيصل الحق فى موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة الإمام الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد الخضر حسين) شيخ الأزهر السابق ، وهو عالم لا يتهم

بعصبية ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنيع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى بكتاب الإحياء فضلاً وسمواً منزلة ، أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره :

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] .

ودرس فتانا (الشيخ الحفنى) على الشيخ نفسه كتاب :

« حلية الأولياء » لأبى نعيم الأصفهانى .

وابو نعيم محدث معروف ، وكتابه هذا أوسع المراجع فيما يتعلق بالشخصيات إلى نهاية القرن الرابع الهجرى تقريبًا ، ويقع فى عشرة أجزاء كبار .

وقد بدأه بالصحابة رضوان الله عليهم مبتدئًا بالصديق رضى الله عنه وذكر فيه كبار المحدثين الصوفية وأئمة مذاهب الفقه ، ورضى الله عن أبى نعيم ، فقد أرضى التاريخ ، وأرضى الأرواح ، وكتابه من العوامل المؤثرة لتزكية النفس .

درس فتانا هذه الكتب ، واستكمل دراسة العلوم التقليدية من الفقه والأصول والمنطق وغيرها مما كان يدرس فى الأزهر .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

وظهر نبوغه فى سن مبكرة ، فقد كان مجدًا مجتهدًا بعيدًا كل البعد عن توافه الأمور ، وعن اللغو ، وعن إضاعة الوقت فيما لا يجدى وكان مكبًّا على الكتب ، ملازمًا لأشياخه ، كل وقته استفادة إما عن طريق المطالعة ، وإما عن طريق السماع من أشياخه .

وقدره أشياخه تقديرًا كبيرًا وهو مازال بعد فى بواكير شبابه :

فأجازوه بالإفتاء والتدريس وهو لم يتجاوز بعد الثالثة والعشرين من عمره المبارك .

عندما انتهى الشيخ الحفنى من الدراسة تلميذًا ، واستأنف حياة الدراسة أستاذًا بدأ يشعر بوطأة الحياة المادية :

فلم يكن الشيخ وارثًا ثراء عريضًا ، ولم يكن تاجرًا غنيًّا ، وإنما كان طالب علم أثناء أن كان يتعلم ، وكان طالب علم أيضًا أثناء أن كان يُدَرسُ ، وكان العلم والعبادة جوهر حياته ، وهو وإن كان قد تدخل فيما كان يحدث بين الحكام إذ ذاك ، أو فيما كان يحدث بين الحكام والشعب ، فإنه ما كان يدخل دخول السياسىّ المحترف ، وإنما كان يدخل دخول الأب الناصح المرشد ، كان يدخل من قمة التوجيه والإرشاد ، كان يدخل قرآنيا محمديًا ، وهو بهذه الصفة كان مخلصًا ؛ لم تكن عنده شهوة الحكم : هذه الشهوة التى تفسد على المصلحين كل شىء والتى لا تأتى إلا بنتيجة حتمية ؛ هى الصراع بين المصلح وبين المجتمع أيضًا . من بيدهم زمام الحكم ؛ ومن وراء ذلك يحدث

الاضطراب فى المجتمع وتسيل الدماء ، ويكون الوبال على الطرفين وعلى المجتمع أيضًا .

والشيطان دائمًا يدخل على المصلحين ، ومن زاوية أنه لا طريق للإصلاح إلا بتولى أمر الحكم ، وتنفيذ الإصلاح بالقوة وبالقانون ، وذلك خداع ينتهى بتدمير الحاكمين والمصلحين والمحكومين ؛ وأحيانًا يلبس الشيطان على المصلحين بأنهم يقومون لله فى وجه الطغاة والظلمة ، ولو أخلصوا وجوههم حقيقة لله لأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر دون أن يكون من وراء ذلك شهوة الحكم ، وإذا فعلوا ذلك كان تأثيرهم فى المجتمع كبيرًا ، وكان الحكام أنفسهم من خير الأعوان لهم ، وينتهى بهم أمر الدعوة إلى أن تعم المجتمع ، وتكون الاستجابة فيصلح أمر المجتمع ويتولى قيادته الصالحون ، وكما تكونوا يول عليكم .

وهذا الطريق : طريق الابتعاد عن شهوة الحكم ، هو الطريق الذى سار فيه الأئمة الأعلام ، من كبار الداعين إلى الله تعالى ، أمثال : الحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى ، وعبد القادر الجيلانى ، والرفاعى ، وأبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وعشرات غيرهم .

لقد كانوا قمة شامخة فى العلم ، وكانوا قممًا شامخة فى الدعوة إلى الله تعالى ، وعاشوا حياتهم داعين إلى الله تعالى : يحترمهم الحكام ، ويحترمهم الشعب ، وهدوا إلى الله تعالى نفوسًا ضالة ، وقادوا إليه سبحانه أفئدة حائرة :

ولأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها ؛

ولأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم[1] وعلى نمط هؤلاء سار شيخنا الحفنى :

سار فى حياته غير متطلع لحكم ولا لدنيا ، ولكن واقعه كان شديد الوطأة من ناحية مطالب الحياة المحدودة التى لا ترغب فى أكثر من الكفاف .

ماذا يفعل ؟

لقد بدأ فى اتخاذ حرفة ، وهذه الحرفة اتخذها الإمام الكبير أحمد بن حنبل من قبله : وهى نَسْخُ الكتب وبيعها والإنفاق من ثمنها . ويستفيد الإنسان من نسخها علمًا ، ويستفيد من بيعها مالاً يكفى - على ضآلته - ما يمسك الرمق ، ويفيد من ذلك الآخرين الذين يشترون الكتاب المنسوخ .

واشترى شيخنا أقلامًا ، واشترى محابر ، وبدأ العمل ؛

ولكنه رأى - عن طريق التجربة - أن ذلك يصرفه ، فى قليل أو كثير ، عن الاستزادة من العلم ، وربما كان الكتاب المطلوب كتابًا عاديًّا لا يستفيد منه جديدًا وهو يريد أن يستفيد جديدًا فى كل لحظة ، ثم طريقة البيع ؟ هل يساوم ؟ هل يعلن عن الكتاب ؟ وبأى أُسلوب يعلن ؟ وعلى أى أساس يساوم ؟

ولكن لابد مما ليس منه بد ، لقد استمر صاحبنا فى هذه الحرفة

---

(١) وأخرج الطبرانى فى الكبير حديثًا لفظه (لأن يَهْدِىَ الله عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ) وهو حديث حسن .

مدة لم تكن طويلة ، يقول الجبرتى عن الشيخ فى بدء حياته فى التدريس :

« حين جلس للإفادة لازمه جل طلبة العلم ، ومن بهم يسمو المعقول والمنقول .

وكان إذ ذاك فى شدة من ضيق العيش ، والنفقة .

فاشترى دواة ، وأقلامًا ، وأوراقًا ، واشتغل بنسخ الكتب فشق عليه ذلك خوفًا من انقطاعه عن العلم .

فبينما هو فى بعض الدروس إذ جاءه رجل وانتظره حتى فرغ من الدرس فقال له :

« يا سيدى أريد أن أكلمك كلمتين »

وأشار إلى مكان قريب ، فسار معه حتى انتهيا إلى المدرسة العينية فدخلاها ثم جلسا فأخرج الرجل محرمة ملآنة بالدراهم ، وقال له :

« يا سيدى فلان يسلم عليك وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ويريد أن يحظى بقبولها » .

فأخذها منه وفتحها ، وملأ كفه من الدراهم وأراد إعطاءها لحاملها ، فامتنع وحلف لايأخذ منها شيئًا ، ثم فارقه ذلك الرجل .

وذهب الشيخ إلى البيت وكسر الأقلام والدواة فاقبلت عليه الدنيا من حينئذ ، وكان يتردد إلى زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل ، ويمكث فيها الليالى متحنثًا .

وأقبل على العلم وعقد الدروس وختم الختوم بحضرة جمع العلماء » .

ولقد شمر الشاب الطموح عن ساعد الجد وهجم مباشرة على تدريس أمهات الكتب ، إنه لم يبدأ بالكتب السهلة ، كتب المبادئ الأولى فى الفنون ، وإنما اتجه مباشرة إلى الكتب الدقيقة : كالأشمونى ، وجمع الجوامع ، والمنهج ، ومختصر السعد ، وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والأصول والحديث والكلام ، وكان ذلك عام اثنتين وعشرين[1] .

وبدأ الطلبة يكثرون فى درس الشيخ ، وبدأت شهرته تذيع ، وبدأ ينتشر صيته .

يقول الجبرتى :

« وحين جلس للإفادة لازمه جل طلبة العلم ، ومن بهم يسمو المعقول والمنقول » .

ويقول الجبرتى وقرأ « المنهاج » مرات وكتب عليه .

وكذلك جمع الجوامع ، والأشمونى ومختصر السعد وحاشية حفيدة عليه ، كتب عليها وقرأها غير مرة .

وكان الشيخ العلامة مصطفى العزيزى إذا رفع إليه سؤال يرسله إليه ؛

واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه وعانى النظم والنثر .

---

(١) انظر الجبرتى .

وتخرج عليه غالب أهل عصره وطبقته ، ومن دونهم كأخيه العلامة الشيخ يوسف ، والشيخ إسماعيل الغنيمى صاحب التآليف البديعة والتحريرات الرفيعة المتوفى سنة إحدى وستين ، وشيخ الشيوخ على العدوى ، والشيخ محمد الغيلانى ، والشيخ محمد الزهار نزيل المحلة الكبرى ، وغيرهم كما هو فى تراجم المذكورين منهم .

وكان على مجالسه هيبة ووقار ، ولا يسأله أحد لمهابته وجلالته » أ هـ .

وطابت حياة الشيخ واستقرت ، وأصبح فى تفرغ كامل للعلم يفيد ويستفيد .

ولكنه كان متفرغًا أيضًا للعبادة ، يقول الجبرتى :

« وكان يتردد إلى زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل ، ويمكث فيها الليالى متحنثًا » كان عالمًا وكان عابدًا ، والعلم النافع هو الذى يثمر فى النفس الطيبة الاتجاه نحو الله تعالى ، وإذا لم يكن العالم عابدًا فإن علمه وبالٌ عليه .

وقد تحدث الرسول ﷺ ، وتحدث أسلافنا عن العلم والعبادة فى استفاضة ، من ذلك ما يلى : وهو بعض ما أخرجه الإمام السيوطى عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] .

---

(١) فاطر : ٢٨ .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال :

« العلماءُ بالله الذين يخافونه » .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم عن صالح : أبى الخليل رضى الله عنه فى قوله « إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاء » قال :

« أَعْلَمُهم بِالله أَشدُّهم لَهُ خَشْيَةً » .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن عدى عن مالك بن أنس ، رضى الله عنه ، قال :

« إِنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ ، إِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فى الْقَلْبِ » .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الحسن رضى الله عنه قال :

« الإيمان من خشى الله بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما أسخط الله ، ثم تلا : « إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق قال :

« كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أن يخشَى الله ، وَكَفى بِالْمرء جَهْلاً أن يَعْجَبَ بِعمَلِهِ » .

وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى والحاكم عن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله رسول ﷺ :

« الْعِلم عِلْمَان ، عِلْمٌ فى الْقَلْبِ فَذَاكَ الْعلمُ النَّافِعُ ، وَعِلْمٌ علَى اللِّسَانِ فَذَلِكَ حُجَّةُ الله عَلى خَلْقِهِ » .

وأخرج ابن أبى شيبة عن حذيفة قال :

« بِحَسْبِ المرْءِ مِنَ الْعِلْمِ أن يخْشَى الله » .

وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« يَنْبَغى لِحَامِلِ الْقُرْآنِ : أَنْ يُعْرفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ ، وَبنَهارِهِ إِذَا النَّاسُ يُفطِرون ، وبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاس يَفْرَحُون ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحكونَ ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُون ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يُخْتَالُون » .

« وَيَنْبَغى لِحَامِلِ الْقُرْآنِ ألا يكُونَ صخَّابًا وَلاَ صَيَّاحًا وَلاَ حَدِيدًا » .

وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال : أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس رضى الله عنهما ، بعد ماذهب بصره ، حتى دخل المسجد الحرام فإذا قوم يمترون فى حلقة لهم عند باب بنى شيبه فقال :

أمل بى إلى حلقة المراء ، فانطلقت به حتى أتاهم فسلم عليهم ، فأرادوه على الجلوس ، فأبى عليهم ، وقال : انتسبوا إلىٰ أعرفكم ، فانتسبوا إليه ، فقال :

أما علمتم أن لله عبادًا أسكتهم خشيته من غير عِيّ ولا بَكَم ، إنهم لهم الفصحاء النطفاء النبلاء العلماء بأيام الله ، غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك ، وانكسرت قلوبهم ،

وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية ، فأين أنتم منهم ؟ ثم تولى عنهم : فلم ير بعد ذلك رجلان » .

اشتغل الشيخ بالعلم والعبادة وعمل بما علم ، فأفاده العمل صفاء العلم ، وأفاده صفاء العلم حسن العمل !

وتكاتف فى حياة الشيخ العلم النافع والعمل الزاكى فكان إمامًا ، وكان قدوة !

أصبح الشيخ قمة فى كل العلوم التى تدرس فى الأزهر ، والتى نبغ فيها فى بواكير شبابه ، ثم زاده مر الأيام تجربة وصقلا ، وكان همه الأكبر : هو تخريج جيل من العلماء الذين يتوافر فيهم الخلق الكريم ، والعلم النافع ، وانصرف إلى ذلك انصرافًا شغله عن كثرة التأليف ، فلم يبلغ فى ذلك مبلغ المكثرين أمثال حجة الإسلام الغزالى ، أو الإمام الشعرانى ؛

ولقد سئل مرة أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه — وكان قمة فى العلوم الإسلامية : العلوم المكتسبة ، والعلوم اللدنية .. سئل :

لم لا تؤلف الكتب ؟

فقال : كتبى أصحابى .

أما الشيخ الحفنى فإنه كان يمكن أن يقال له :

لِمَ لَمْ تكثر من التأليف ؟

وكان من الممكن أن يقول : شغلتنى تربية المريدين عن كثرة التأليف .

يقول الجبرتى عنه .

« ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء » .

ويمكن أن تتضمن كلمة الجبرتي هذه نصائح الشيخ للمريدين والأتباع والسير بهم - بتوفيق الله - فى طريق الهداية .

ومع ذلك فإن الشيخ الحفنى ألف مجموعة لا بأس بها من نفائس الكتب .

لقد ألف :

١ - رسالة موجزة كل الإيجاز فى ضبط أسماء الذين حضروا غزوة بدر من الصحابة ، وقد اقتصرت الرسالة - تقريبًا - على ضبط الأسماء ، وسماها : « الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية » .

٢ - حاشية على شرح الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى على متن الهمزية ، فى مدح خير البرية .

والهمزية قصيدة طويلة هى أطول قصائد الإمام البوصيرى ، وهى قصيدة البردة أنفس قصائد البوصيرى .

وتبتدئ الهمزية بقول البوصيرى رضى الله عنه :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماءُ

لم يساوُوك فى عُلاك وقد حا ل سنًا منك دونهم وسناءُ

والهمزية هذه كلها درر ، ومن الخير أن يتدارسها الدارسون ، وأن يحفظها عشاق الأدب الرفيع ، والمحبون لرسول الله ﷺ ، ومنها :

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلاً وهكذا النجباءُ

وإذا حلت الهداية قلبًا نشطت فى العبادة الأعضاءُ

ومنها :

لا تَخَلْ جانب النبى مُضَاما ... حين مسَّته منهم الأسواءُ

كل أمر ناب النبيين فالشد ... دة فيه محمودةٌ والرخاءُ

لو يمسُّ النضار هوت من النا ... ر لما اختير للنضار الصلاءُ

ومنها :

رحمة كلّه وحزم وعزم ... ووقار وعصمة وحياءُ

لا تَحُلُّ البأساءَ منه عُر الصبـ ... ـر ولا تستخفه السَّرَّاءُ

كرمت نفسه فما يخطر السو ... ء على قلبه ولا الفحشاءُ

ومنها :

لا تكذّب أن اليهود وقد زا ... غوا عن الحق معشرٌ لُؤَماءُ

جحدوا المصطفى وآمن بالطا ... غوت قومٌ هم عندهم شرفاءُ

قتلوا الأنبياء واتخذوا العجـ ... ـل إلا إنَّهم هُمُ السفهاءُ

وسفيه من ساءه المن والسّلْـ ... ـوى وأرضاه الفُوم والقثاءُ

مُلِئَت بالخبيث منهم بطون ... فهى نار طباقها الأمْعَاءُ

لو أُريدُوا فى حال سبْت بخير ... كان سبتا لديهمُ الأربعاءُ

هو يوم مبارك قيل للتصـ ... ـريف فيه من اليهود اعتداءُ

فبظلم منهم وكفر عدتهم ... طيبات فى تركهن ابتلاءُ

وقرب نهايتها يقول :

إن من معجزاتك العجز عن وصفك ... إذ لا يحدّه الإحصاءُ

كيف يستوعب الكلام سجاياك ... وهل تنزح البحارَ الركاءُ[1]

---

(١) الركا : جمع ركوة – وعاء صغير .

والهمزية لنفاستها – حاول الشعراء معارضتها : أى تأليف قصيدة على وزنها ومن رويها وفى موضوعها ، وهكذا يفعل الشعراء الفحول ، بالنسبة للقصائد التى تسير فى العالم سرى الضوء ، لفصاحتها وبلاغتها ونفاسة معانيها .

ومن خير من عارض هذه القصيدة أمير الشعراء : أحمد شوقى .

وقد سمى قصيدته : الهمزية النَّبوية .

وهى قصيدة من نفائس غرر شوقى مطلعها :

ولد الهــدى ، فالكائناتُ ضياءُ ... وفـم الزمـــان تبسُّمٌ وثناءُ
الروحُ والمــلأُ الملائــكُ حَوْلَهُ ... للديــن والدنيــا بــه بُشَراءُ
والعرش يزهو ، والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والسِّدْرَةُ العصمــاءُ
وحديقة الفرقــان ضاحكة الربا ... بالترجمـــان ، شَذِيَّةٌ غَنَّاءُ
والوحى يقطـر سَلْسَلاً من سلسلٍ ... واللــوحُ والقلــمُ البديعُ رواءُ
نُظِمَتْ أسامى الرُّسْلِ فهى صحيفةٌ ... فى اللــوح ، واسمُ محمد طغراءُ
اسـم الجلالة فى بديع حروفهِ ... أِلفٌ هنالك، واسـمُ (طه) الباءُ

ومنها هذه الأبيات الفاخرة الجميلة الثاقبة الحسنة :

فإذا سَخَوتَ بلغتَ بالجود المدى ... وفعلت مــا لا تفعلُ الأنــواءُ
وإذا عَفَوْت فقــادرًا ، ومقدَّرًا ... لا يستهـين بعفــوك الْجُهلاءُ
وإذا رحِـمت فأنت أُمٌّ ، أو أبٌ ... هذان فى الدنيــا هما الرُّحَماءُ
وإذا غَضِبْتَ فإنمــا هــى غَضْبَة ... فى الحـق ، لا ضِغْنٍ ولا بغضاءُ
وإذا رضيت فذاك فى مرضاتــه ... ورضى الكثــير تحلُّمٌ وريــاءُ
وإذا خَطبت فللمنابــر هِـزَّةٌ ... تَعرو النَّدِىَّ ، وللقلــوب بكــاءُ

وإذا قضيت فلا ارتياب ، كأنما جاءَ الخصوم من السماء قضاءُ
وإذا حَمَيْتَ الماء لم يُورَدْ ، ولو أن القياصرَ والملوكَ ظِماءُ
وإذا ملكت النفس قُمْتَ ببرها ولو أنْ ما ملكت يداك الشاءُ
وإذا بنيتَ فخيرُ زَوْجٍ عِشرةً وإذا ابْتَنَيْتَ فدونَك الآباءُ
وإذا صَحِبْتَ رأى الوفاءَ مُجَسَّمًا فى بُرْدِك الأصْحابُ والخلطاء
وإذا أخذتَ العهد ، أو أعْطَيْتَه فجميع عهدك ذِمَّةٌ ووفاء
وتمد حِلْمَك للسفيه مُداريًا حتى يضيق بعرضكَ السفهاء
فى كل نفْسٍ من سطاك مهَابةٌ ولكل نفس فى نداكَ رجاءُ

ومنها :

بك يا ابنَ عبد الله قامتْ سَمْحَةٌ بالحقِّ من مِلَلِ الهدى غرَّاءُ
بُنِيَتْ على التوحيد ، وهى حقيقةٌ نادى بها سقراط والقدماءُ

وقد شرح قصيدة الهمزية للبوصيرى رضى الله عنه كثير من الكتاب ومن شرحوها العالم الكبير الإمام : شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى ويقول عنها :

قصيدته الهمزية المشهورة : العذبة الألفاظ ، الجزلة المبانى ، العجيبة الأوضاع ، البديعة المعانى ، العديمة النظير ، البديعة التحرير ، إذ لم ينسج أحد على منوالها ولا وصل إلى حسنها وكمالها ، حتى الإمام البرهان القيراطى المولود سنة ست وعشرين وسبعمائة والمتوفى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة فإنه مع جلالته وتضلعه من العلوم النقلية ، والعقلية وتقدمه على أهل عصره فى العلوم العربية والأدبية لا سيما علم البلاغة ، ونقد الشعر ، وإتقان صنعته ، وتمييز حُلوه من مرّه ، ونهايته من بدايته ،

أراد أن يحاكيها فَفَاته الشنب[1] ، وانقطعت به الحيل ، عن أن يبلغ من معارضتها أدنى أرب ، وذلك لطلاوة نظمها ، وحلاوة رسمها وبلاغة جمعها ، وبراعة صنعها ، وامتلاء الخافقين بأنوار جمالها ، وإدحاض دعاوى أهل الكتابين ببراهين جلالها فهى دون نظائرها ، الآخذةُ بأزمة العقول والجامعةُ بين المعقول والمنقول ، والحاويةُ لأكثر المعجزات والحاكيةُ للشمائل الكريمة على سنن قطع أعناق أفكار الشعراء عن أن تشرئب إلى محاكاة تلك المحكيات .

والهمزية البوصيرية التى شرحها ابن حجر الهيثمى ، والتى كتب حاشيتها الشيخ الحفنى موضوعها مدح رسول الله ﷺ ، وعن مدح رسول الله ﷺ يقول الهيثمى :

« فمما يتعين على كل مكلف أن يعتقد أن كمالات نبينا ﷺ ، لا تحصى ، وأن أحواله وصفاته وشمائله لا تستقصى ، وأن خصائصه ومعجزاته لم تجتمع قط فى مخلوق ، وأن حقه على الكمل ، فضلاً عن غيرهم أعظم الحقوق ، وأنه لا يقوم ببعض ذلك إلا من بذل وسعه فى إجلاله وتوقيره وإعظامه ، واستجلاء مناقبه ومآثره وحِكَمه وأحكامه ، وإن المادحين لجنابه العلى ، والواصفين لكماله الجلى ، لم يصلوا إلا إلى قُلّ من كل ، لاحد لنهايته ، وغيض من فيض ، لا وصول إلى غايته ، ومن ثم كان أبلغ بيت هذا المطلع[2] . الآتى كما يعلم مما يأتى فيه ، وفى بردة المديح :

---

(١) الشنب عذوبة الأسنان وحسنها (قائمة جمال الفم) .

(٢) مطلع الهمزية هو :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنـه ناطـق بفم

ثم يليه :

دع مـا ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بماشئت مدحًا فيه واحتكم

ثم يليه :

فمبلغ العلـم فيـه أنه بشر وأنه خـير خلق الله كلهـم

فاق النبيين فى خلْق وفى خلُق ولـم يدانـوه فى علمٍ ولا كرم

فهم مقصرون عما هناك قاصرون عن أداء كل ما يتعين من ذلك كيف رأى الكتاب مفحصة عن علاه بما يبهر العقول ومصرحة من كل صفاته بما لا يستطاع إليه الوصول وقد قيل :

ماذا عسى الشعراء اليوم تمدحهُ من بعد ما مدحت حم تنزيل

فعلم من ذلك أنه لو بالغ الأولون والآخرون فى إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه به مولاه الكريم من مواهبه ، ولكان المسلم بساحل بحرها مقصرًا عن حصر بعض فخرها ؛ ولقد صح لمحبيه أن ينشدوا فيه :

وعلى تفنن واصفيـه بوصـفه يفنى الزمانوفيه ما لم يوصف

وإنه لحقيق بقول القائل :

فأبلغت كـف امـرىء متناولاً من المجد إلا والذى نال أطول

ولا بلغ المهدون فى القول مدحة ولو حذقوا إلا الذى فيه أفضل

ولابن خطيب الأندلسى :

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثنى على علياك نظم مديحى
وإذا كتاب الله أثنى مفصحًا ... كان القصور قصار[1] كل فصيح

ويقول الشيخ الحفنى فى ابتداء حاشيته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حمدًا لمن جعل أحبابه أدلاء على سبيل الهداية ، وأمدهم بلوامع الأنوار وسواطع الأسرار فى البداية والنهاية ، وصلاة وسلامًا على صاحب الرتب العليّة ، وعلى آله وأصحابه كنوز المعارف الإلهية .

وبعد : فيقول فقير المغنى عبد مولاه محمد الحفنى :

هذه حواشى تفوق نفائس الدرر على شرح « الهمزية » ، للعلامة الشهاب ابن حجر ، جاد بها الكريم الوهاب ، أيام قراءتى المتن ، ومطالعتى عليه هذا الكتاب ضاعف الله لى ولمؤلفيهما الأجور ، إنه جواد كريم غفورًا » أ هـ

وحاشية الشيخ الحفنى تتجه فى الغالب الأعم إلى الناحية اللغوية ، ويدل ذلك دلالة واضحة على تمكن الشيخ تمكنًا عميقًا من الجانب اللغوى ، ولكنه من آن لآخر يتحدث عن الجانب الروحى ، وعن آراء تتصل بالتصوف ، ونحن هنا نعطى بعض الأمثلة فى مسائل ذات أهمية ؛

يقول الإمام البوصيرى فى همزيته :

ليته خصنى برؤية وجه ... زال عن كل من رآه الشقاءُ

---

(١) جهده وغاية .

ويتحدث الإمام الحفنى عن ذلك فيقول :

« بأن يرى روحه الشريفة المتشكلة شكل جسده الشريف المنطلقة الانطلاق الكلى ، أو جسده الشريف ، فإنه حى فى قبره ، ولا مانع من إكرام الله بعض عبيده برفع الحجب بينه وبين رسول الله ﷺ ، فيراه فى قبره ، وإن بعدت داره ، فليس المراد برؤيته يقظة ، أنه يخرج من قبره بروحه وجسده ، ويمشى فى الأسواق ،ويأتى لمكان الرائى ، ويخفى عمن لم يرد الله له رؤيته كالملائكة ، وإنما المراد أن الحجب تزول خرقًا للعادة ، بأن تجعل تلك الحجب كالزجاج الذى يحكى ما وراءه فيراه أولياءُ الله بعين بصرهم مع كونه فى قبره ، ويحادثونه ويسألونه عن أشياء ، ويجيبهم ويسمعون ، وإن بعدت أماكنهم ، لأنه حىٌّ فى قبره .

(قوله بخ بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منونا وهى كلمة تطلق لتضخيم الأمر وتعظيمه فى الخير ا هـ شرح مسلم للنووى .

وقال فى الصحاح هى كلمة تقال عند المدح ، والرضا بالشىء . وتكرر للمبالغة فيقال : بخ بخ ، فإن وصلت خفضت ونونت ، فقلت بخ بخ ، وربما شددت كالاسم أ هـ .

وقال الهروى فى غريبه ، وسكنت الخاء كما سكنت فى « هل » و « بل » ويقال بخ بخ بالخفض منونا ، فمن فعل ذلك شبهها بالأصوات « كصه » وما أشبه ذلك وقال ابن السكيت : « بخ بخ » « وبه به » بمعنى واحد ا هـ .

(قوله : هذا الناموس) هو صاحب سر الخير ، والجاسوس : هو صاحب سر الشر ، ولم يقل الناموس الذى أنزل على عيسى ، مع قربه ، وحكمه بشريعته بعد نزوله ؛ لأن ورقة كان نصرانيا ، والنصارى لا يقولون فى عيسى : « إنه نبى » يأتيه الوحى ، وإنما يقولون : إن أقنومًا من الأقانيم الثلاثة ، حل فى ناسوت المسيح ، وهو أقنوم الكلمة ، والكلمة عندهم عبارة عن « العلم » فلذلك كان المسيح عندهم يعلم الغيب ، فلذا عدل إلى ذكر موسى لاعتقاده : أن جبريل كان ينزل عليه ، وأيضًا موسى متفق على نبوته عند أهل الكتابين ، وأما عيسى فكثير من اليهود ينكرون نبوّته .

(قوله مسيلمة الكذاب اللعين) ويروى عن اللعين ، أنه قيل له : إن محمدًا إذا تفل فى الماء الملح صار عذبًا ، فهلا تتفل فى هذا البئر الملح فيصير عذبًا مثله ؟ فتفل فيه ، ففار ماؤه ، وأتى له بأعور ، فدعا الله تعالى أن تعود له عينه العوراء ، فغارت الصحيحة ، فقيل ما هذا ؟ فقال إن محمدًا بعث بالعمار ، وبعثت بالخراب ، وقد أنزل الله تعالى فيه ﴿ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى علىَ الله الكذب﴾[1] الآية ... وقُتل فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه زمن خلافته لما غزا اليمامة ، وقتله وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب ، قال قتلت بحربتى خير الناس ، وقتلت بها شر الناس ، يعنى مسيلمة ويعنى بخير الناس حمزة رضى الله عنه ولعل الله أن يكفر هذا بذاك .

قوله لكل كلمة ظهر ، مما قيل فى معنى البطن ، والظهر أن

---

(١) الصف : ٧ .

ظاهر الكلمة لفظها ، وباطنها تأويلها ، ومنه أن القصص التى قصها الله عن الأمم الماضية ، وما عاقبهم بها ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين وباطنها ، وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم ، ومنه أن ظاهرها ما ظهر من معانيها ، وباطنها ما تضمنته من الأسرار التى اطلع عليها أرباب الحقائق ؛

وقوله : وحد ، أى أحكام الحلال والحرام ؛

وقوله : ومقطع سبق قلم ، والظاهر بدله مطلع أى إشراف على الوعد والوعيد : كذا فى الإتقان .

(قوله الأب والابن إلخ) إنما يناسب هذا لو قال الشارح أن الله أجزاء ثلاثة ، وأما قوله أن الله ثالث ثلاثة إنما يناسب أن يقول بعده ما فى الجلالين من تفسير قوله إن الله ثالث ثلاثة ونص ما فيهما : أى آلهة ثلاثة ، أى أحدها ، والآخران عيسى وأمه ، وقد يقال هذا ظاهر على ما ذكره السنباطى يريدون بالأب الوجود ، وبالابن العلم ، وبروح القدس الحياة ، والذى ذكره الخازن فى تفسيره الأقانيم ما ملخصُه أن أقنوم الأب : ذات وأقنوم الابن : عيسى ، وأقنوم روح القدس : الحياة الحالة فيه ا هـ .

وفيه أن الحياة الحالة فى عيسى ليست إلها حتى يكون ماذكره الخازن مناسبًا لما فى الشرح اللّهم ، إلا أن يقولوا إن الحياة المذكورة إله ، وحينئذ فتظهر مناسبته لما فى الشرح ، تأمل ، وحينئذ فعبارة السنباطى وقول الشارح الأب إنما يناسبان قول فرقة أخرى من أهل الضلال : إن الله مركب من أقانيم ثلاثة : الأب والابن وروح القدس المبينة فى شرح السنباطى وهذه الفرقة هى النسْطورية من النصارى ،

ويقولون أيضًا إن المسيح ابن الله والفرقة القائلة بأن الله ثالث ثلاثة المبينة فى الجلالين وهم المرقوسية وهم نصارى نجران .

(قوله نسطورية) بضم النون وفتحها أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمن المأمون وتعرف فى الإنجيل برأيه وقال : إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة وأن المسيح ابن الله ، وقوله : ويعقوبية ، أصحاب يعقوب راهب القسطنطونية ، قالوا : إن المسيح هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء وقوله : « وملكيه ، أصحاب ملكان الذى ظهر ببلاد الروم ، قالوا : المسيح عبد الله ونبيه كذا فى البيضاوى فى سورة مريم[1] عند قوله : ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ...﴾ الآية .

زاد الثعالبى ، والمرقوسية وهم نصارى أهل نجران ، قالوا : الله ثالث ثلاثة والآخران عيسى وأمه وسيأتى أن الناظم أشار لفرقة خامسة بقوله : « أم أردتم » بها الصفات كما فى شرح السنباطى على ما يقتضيه ظاهر عبارته ، وسيأتى نقلها هناك ، وإمكان رد ماذكره مذهب اليعقوبية .

قوله : إن مثل أهل بيتى إلخ ، وما ألطف قول بعضهم يمدح أهل البيت :

يا بحار الندى أ أخشى وأنتم	سفن للنجـــاة يـــوم المعـــاد
لست أخشى يا آل أحمد ذنبًا	مع حبى لكم وحسن اعتقادى

قوله : لأن الله ورسوله أثنيا ... الخ ، ولله در شيخنا العلامة الشبراوى ، من قصيدة يمدح بها آل البيت :

(١) مريم : ٣٧ .

قـــال لى قـــائل رأيتك تهوى   آل طـــه ودائمـــًا تجتبيهـــــم
إن حقــا عليك تستغرق العمـــ   ـــر مديحًا فيهـــم وفيمن يليهـم
قلت ماذا أقـــول والكون طرًّا   يستمد العطـــاء من ناديهـــم
أنـــا لا أستطيعُ أمدحُ قومـــًا   كـــان جبريـــل خادمـــًا لأبيهـــم

وفى نهاية الحاشية يقول الشيخ الحفنى :

وهذا آخر ما من به الملك الوهاب ، وإليه سبحانه وتعالى المرجع والمآب نسأله من فضله أن يجعلها هداية نافعة لكل قلب منيب ، كاشفة ظلمات الأوهام عن كل صب مصيب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، حقيقة الصلوات ، وروح للكلمات ، محمد جامع الإجمال الذاتى القرآنى ، حاوى التفصيل الصفاتى الفرقانى ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأحبابه ؛ ثم يقول رحمه الله معبرًا عن الزمن الذى فرغ فيه من تأليفها .

قال جامعها حفظه الله وكان الفراغ من تعليقها يوم الأربعاء ، غرة شعبان سنة سبعين ومائة وألف من هجرة أشرف المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام .وأسأل الله من فضله حسن الختام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

سبق أن كتبنا عدة مرات عن « الطريق الصوفى » ، فى عدة من كتبنا ، والطريق الصوفى نوعان :

١ – نوع خاص بكل طريقة .

٢ – نوع عام تلتزمه كل الطرق .

والنوع الخاص : هو الطريق الذى اتبعه شيخ الطريقة ، فوصل به إلى القرب من الله تعالى ، ولذلك فهو يرسمه لأتباعه ومريديه ، وما كان يتأتى غير ذلك ؛ إذ أنه - وقد وصل إلى القرب عن طريق معين - يرى قيادة أتباعه فى هذا الطريق ؛ وخصوصًا وأنه لا يعرف غيره .

ومن هنا كان اختلاف الطرق ، ولكنها كلها تنتهى - على اختلافها - إلى القرب !

والقربُ فى العرف الصوفى : هو التوحيد ، والتوحيد واحد . ومن هنا يقول الإمام الشبلى : بدؤه : معرفته ، ونهايته توحيده ، ومن هنا يقولون عبارتهم المشهورة .

« التوحيد واحد » والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم !

ويقول ابن سينا فى ذلك عن الطريق الصوفى ، أو عن الصوفى فى سيره : « مُنْتَهٍ إلى الواحد ثم وقوف » !

أى أن الغاية التى ينتهى إليها الصوفى : هى التوحيد ، والتوحيد هو مركز الدائرة للجميع ، وهم يشبهون الطرق بدائرة ، وهذه الدائرة لها بالضرورة محيط ومركز ، ومن المحيط تخرج خطوط تصل إلى المركز ، وهذه الخطوط فى مبدإ خروجها من محيط الدائرة تكون متباعدة قليلاً ، أو كثيرًا ، ولكنها فى سيرها نحو المركز تتقارب باستمرار حتى إذا ما وصلت إلى المركز اتحدت !

والمركز : هو التوحيد ، والخطوط هى الطرق .

بيد أن هذه الطرق يشترط فيها أن تسير من المبدإ إلى النهاية

فى إطار التعاليم الدينية ، فإذا ما انحرفت ، فقد خرجت عن أن تكون طريقة ، وعن أن تكون تصوفًا .

والتصوف يتكون من هذين العنصرين : الطريق والغاية .

والطريق وحده لا يسمى تصوفًا ، والغاية وحدها لا تتأتى إلا بالسير ، والسير لا يكون إلا فى ضوء الدين ، وفى أنوار الوحى .

هذا عن الطريق الخاص .

أما عن النوع العام الذى تلتزمه كل طريقة ؛ فهو ما يسمى بالمقامات ، التى تنتج عنها الأحوال .

والأحوال : وإن كانت ثمرة للمقامات ، فإنها تكون – أيضًا – استشرافًا إلى مقام أعلى ، فهى إذن ثمرة وتوجيه إلى ما هو أسمى .

فالتوبة مقام ، أول المقامات ، وفى مقام التوبة أحوال ، أى إلهامات سريعة عابرة توجه إلى الصدق فى التوبة ، وتستشرف إلى مقام الورع .

وما من شك فى أن الإنسان يتسامى فى التوبة نفسها من سام إلى أسْمى ، فهناك التوبة عن كبائر الذنوب ، ثم التوبة عن صغائرها ، ثم التوبة عن اللمم ، ثم التوبة عن الخواطر السيئة ، ثم التوبة عن الغفلة ، ثم التوبة عن النقص .. وهكذا ! وفى اثناء « الأحوال » الخاصة بالتوبة تمر بالإنسان الأحوال الموجهة إلى الورع ، وتستمر الأحوال الموجهة إلى الورع تقرع الشعور مستشرفة إلى الورع ، حتى يصبح الإنسان ورعًا .

فإذا كان مقام الورع أخذت الأحوال تتوالى : دقة فى الورع نفسه ، واستشرافًا إلى مقام : الزهد ، وتستمر الأحوال فى تسام فى الورع ،

وفى استشراف إلى الزهد ، حتى إذا ما تمكن الإنسان فى مقام الورع ، أخذت به الأحوال : حاثة وموجهة إلى مقام الزهد .. وهكذا !

هذا النوع العام من الطريق هو فى جوهره النوع الأخلاقى ، أسمى ما تكون الأخلاق .

بيد أن السلوك الظاهرى ، واضح فى المراحل الأولى : إنه واضح فى الإقبال على الأشياء ، وفى الانتهاء عنها ، واضح فى الإيجاب والسلب ، فى الأخذ والترك ويضاحبه فى ذلك الجانب القلبى .

فإذا ما تقدم الإنسان فى الطريق ، فوصل إلى التوكل ، الذى هو فى حقيقة الأمر أول المقامات الصوفية الأصيلة ، كان الشعور القلبى هو اللب والجوهر .

ولقد سار أبو الأنوار فى الطريق الخاص ، وسار فى النوع العام وسنتحدث بتوفيق الله عن الأمرين عنده ، ونبتدئ بالطريق الخاص .

وطريق أبى الأنوار الخاص هو الطريق الخلوتى : لقد كان أبو الأنوار خلوتيًّا فى نهجه الصوفى العام .

ولكنه كان من سعة الأفق ، ومن رحابة الصدر ، ومن التمكن فى الولاية ، بحيث يروى عن كبار الصوفية من أية طريقة كانوا ويثنى عليهم وينقل عنهم .

إنه مثلاً ينقل عن أبى العباسى المرسى ، – رضى الله عنه – قوله : « جلت فى الملكوت ، فرأيت أبا مدين معلقًا بساق العرش :

فقلت ما مقامك ؟

قال : رأس الأبدال .

قلت : فالشاذلى ؟

قال : ذاك بحر لا يحاط به !

وسنرى - إن شاء الله - حينما نتحدث عن مقام « المحبة » إنه ينقل عن الشاذلى رضى الله عنه كثيرًا من الكلمات الجميلة النفيسة ، التى تتعلق بالمحبة ، ويكاد يقتصر على ما قاله الشاذلى فى ذلك :

ثم إنه كتب حاشية على همزية الإمام البوصيرى والإمام البوصيرى شاذلى الطريقة .

لم يكن الحفنى يتحرج من أن يمدح الأولياء ، أو ينقل عنهم ، أو يشرح كلامهم .

وهذا شأن كل من وصل إلى الولاية الحق .

وذلك أن من وصل إلى القرب من الله سبحانه فقد وصل إلى التوحيد - مركز الدائرة وفى التوحيد تلتقى كل الطرق ، وتمتزج وتأتلف وتصبح وحدة .

إنها إذا افترقت فى المبدإ فإنها تتقارب كلما قربت من الله تعالى - من التوحيد - وبمقدار قربها من التوحيد يكون تقاربها حتى إذا انتهت إلى الواحد أصبحت واحدة ، وفى هذه المنزلة يكون الولى شاذليًّا ، وأحمديًّا ورفاعيًّا وقادريًّا وما شئت من طرق .

ومن أجل ذلك فإن كبار الأولياء أخوة متحابون فى الله ، يعملون جميعا لهداية الخلق إلى الحق ، باتباع إمامهم المعصوم صلوات الله وسلامه عليه .

ونصل الآن إلى رسم طريقة أبى الأنوار الخاصة مبتدئين معها من نشأتها وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه .

ومن الأسباب المباشرة لاندفاع أبى الأنوار فى أضواء التصوف : أن وفقه الله إلى شيخ صادق .

ومسألة الشيخ الصادق لها أهميتها الكبرى فى طريق القوم ومن توفيق الله أنه :

فى سنة ١١٣٣ حضر إلى القاهرة الأستاذ الكبير العارف بالله الشيخ مصطفى البكرى ، وكان للشيخ مصطفى شخصية قوية : علم غزيرٌ ، وعبادة لا تفتر ، ومنطق جذاب ، ونظرات نفاذة ..

وكان له هيبة ، وكان له مع الهيبة جاذبية تجعل المريدين يلتفون به ، ويتجهون إلى الله على يديه تائبين منيبين ، وتتغير حياتهم بين يوم وليلة من معصية إلى طاعة ، ومن انحراف إلى استقامة ، وهكذا حياة أولياء الله :

إنها فى ليلهم ونهارهم هداية إلى الله ، ودعوة إلى سبيل المؤمنين .. أما عن التعريف بالسيد البكرى ، فهو :

« مصطفى » يقول عنه العارف بالله الشيخ عمر الشبراوى رضى الله عنه : « علم على المصنف ، وهو من أسمائه ﷺ ، ومعناه المختار ، مأخوذ من الصفوة وهى الخلوص ... » .

ابن « كمال الدين » ويقول عنه العارف بالله الشيخ الشرقاوى رضى الله عنه :

وكان رضى الله تعالى عنه عالمًا صالحًا ، قليل الاختلاط بالناس ،

كثير الأوراد ، نشأ متعبدًا ، مصاحبًا للعفة والديانة ، وأخذ العلم عن أشياخ كثيرين .

« ابن على » : يقول الشيخ الشرقاوى كان صاحب أخلاق مرضية ، وقلب سليم ، وممن شهد له بالفضل : العارف بالله الشيخ عبد الغنى النابلسى .. وأخذ طريق النقشبندية عن العارف المحقق الشيخ الكردى اللارى ، وطريق الخلوتية عن العارف بالله قرة باش على أفندى .

ابن كمال الدين : يقول العارف عمر الشبراوى : لقب وضع علما على والد جدّ المصنف ، وقال العارف الشرقاوى نقلاً عن الثقات :

إنه كان شافعى المذهب ، تقيًّا ، دينًا ورعًا ، على أثر أسلافه ، هينًا لينًا ، لطيف الصفات ، حسن الخلق والخُلق ، يتقرب كثيرًا بصلة الأرحام ، ويتودد لقلوب الخواص والعوام .

ابن محيى الدين : يقول الشيخ عمر الشبراوى :

لقب لجد جد المصنف ، واسمه : عبد القادر بن محمد بدر الدين . وكان شافعيًّا ، وكان عالمًا ، ورعًا تقيًّا نقيًّا ، على أثر أجداده ، رضى الله عنهم أجمعين : وينتهى نسبه من جهة أبيه ، إلى الصديق رضى الله عنه ، فهو بكرى نسبة إلى خليفة رسول الله ﷺ .

أما من جهة أمه ، فإن نسبه يتصل بمولانا الإمام الحسين رضى الله عنه .

ومن جهة أم جده أحمد زين الصديقى فإن نسبه يتصل بمولانا الإمام الحسن رضى الله عنه فهو بكرى[1] حسنى حسينى .

---

(١) وعن الشيخ مصطفى البكرى يقول صاحب كتاب الأعلام ما يلى : مصطفى بن كمال الدين بن على البكرى الصديقى، الخلوتى طريقة، الحنفى مذهبًا، أبو المواهب .. متصوف ، من العلماء ، كثير الرحلات والتصانيف والنظم، ولد فى دمشق ، ورحل إلى القدس سنة ١٠٢٢هـ ، وزار حلب ، وبغداد ، ومصر، والقسطنطينية والحجاز ، ومات بمصر.
رأيت من كتبه :
مجموع رسائل رحلاته (خ) فى مجلد كبير أكثره بخطه ، ويشتمل هذا المجموع على الرسائل الآتية :
الخمرة المحسية فى الرحلة القدسية .
الخطوة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية .
برء السقام فى زيارة برزة والمقام .
لمع برق المقامات العوالى فى زيارة حسن الراعى وولده عبد العال .
الحلة الذهبية فى الرحلة الحلبية .
النحلة النصرية فى الرحلة المصرية .
الحالة الحقيقية لا المجازية فى الرحلة الحجازية .
أردان حلة الإحسان فى الرحلة إلى جبل لبنان .
الحلة الرضوانية الإنجازية الدانية فى الرحلة الحجازية الثانية .
الحلقة الرضوانية الإنجازية الدانية فى الرحلة الحجازية الثانية .
العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية .
وفى تاريخ المرادى أسماء كتبه كلها ، منها :
والسيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والإلحاد (ط)
والذخيرة الماحية للآثام ، فى الصلاة على خير الأنام (ط)
والمورد العذب لذوى الورود فى كشف معنى وحدة الوجود (خ)
رسالة والصلاة الهامعه (ط) فى فضائل الخلفاء الأربعة .
والفتح القدسى (خ) أدعية .
وبلغة المريد (ط) أرجوزة فى التصوف ٢١٣ بيتًا .
وأرجوزة فى الشمائل (خ)
=

وله نظم كثير وقصائد جمة خارجة عن الدواوين تقارب اثنى عشر ألف بيت[1] .

وطريقته – كما قلنا – « الخلوتية » وفى ذلك يقول العارف بالله الشيخ عمر الشبراوى وهى طريقة العارف بالله تعالى ، الشيخ الجنيد رضى الله عنه التى سلكها ، أى المصنف ، على يد شيخه الشيخ : عبد اللطيف الحلبى ، وأجازه بالإرشاد قبل وفاته بسنتين أو أكثر ، ثم بعد وفاته أجازه الشيخ عبد الغنى النابلسى بطريقة القادرية والنقشبندية ، ذكره المصنف فى الشرح الكبير للورد ، والمصنف الذى يعنيه هو : الشيخ مصطفى البكرى نفسه .

= والتواصى بالصبر والحق (خ) تصوف

وشرح القصيدة المنفرجة (خ)

وفوائد الفرائد (ط) منظومة فى العقائد .. شرحها الدردير .

واللمحات (ط) فى صلوات ابن مشيش .

ومنظومة الاستغفار (ط) مع شرح لها .

والمنهل العذب السائغ لرواده ، فى ذكر صلوات الطريق وأوراده (ط) ..

المرادى ٤: ١٩٠– ٢٠٠ ، وفيه : بلغت مؤلفاته ٢٢٢ ما بين مجلد وكراستين واقل وأكثر

(١) والجبرتى ١ : ١٦٥

وجامع كرامات الأوليا ٢ : ٢٥٤

وبيت الصديق : ١٥٥

وفهرس الفهارس ١ : ١٥٩

والتيمورية ٣ : ٣٧

ومعجم المطبوعات : ٥٨٢

وكتابه الأخير « المنهل » من مخطوطات خزانة السيد أحمد خيرى .

ذكره فى إزالة الشبهات : ٢٢١

وانظر مخطوطات الظاهرية ٦٩

وفهرس المؤلفين : ٣٠٠ .

وأما مذهبه فإنه المذهب الحنفى .

يقول الشيخ حسن شمة ، عن السيد البكرى : نشأ ببيت المقدس على أكرم الأخلاق ، وأكملها ، وأحسنها وصفًا ، وأعدلها .

رباه شيخه الشيخ عبد اللطيف الحلبى المتقدم ذكره فى الطريق وغذاه بلبان أهل المعرفة والتحقيق ، ففاق ذلك الفرعُ الأصلَ ، وظهرت به فى الأفق شمس الفضل ، فبرع فهمًا وعلمًا ، وأبدع نثرًا ونظمًا ، ورحل إلى جل الأقطار ، لبلوغ أجل الأوطار ، كما دأب على ذلك السلف ، لما فيه من اكتساب المعالى والشرف ، وفى مرحلته إلى « إسلامبول » ، لبس فيها ثياب الخمول ، ومكث فيها سنة ، لم يؤذن له بارتحال ، ولم يدر كيف الحال ، فلما كان آخر السنة قام ليلة ، فصلى على عادته : من التهجد ما شاء الله أن يصلى ، ثم جلس لقراءة الورد السحرى . وفى نهاية تلك الليلة أذن له بالرحيل .

ويقول أيضًا : ورحل أيضًا إلى « جبل لبنان » وإلى « البصرة » « وبغداد » وماوالاهما وحج مرات .

وكان الشيخ البكرى مكثرًا فى التأليف ، وعن ذلك يقول الشيخ حسن شمة : وتآليفه تقارب المائتين ، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين ، وأجلها ورده السحرى ، إذ هو باب قواعد الفتح ، وله عليه ثلاثة شروح ، أكبرها فى مجلدين ، وقد شاد أركان هذه الطريقة ، وأقام رسومها ، وأبدى فوائدها ، وأظهر فرائدها ، ومنحه الله من خزائن الغيب ، مالا يدخل تحت حصر .

ولكن رغم كثرة التأليف ، فإن الشيخ البكرى حين يذكر ، مباشرة ورد « سحر » وإذا ذكر ورد « سحر » يذكر مباشرة الشيخ البكرى .

وهو حقًّا ورد مبارك : شرحه الشيخ البكرى نفسه ثلاثة شروح كما سبق ، وشرحه كثير غيره ، ومن خيار الذين شرحوه : الشيخ الشرقاوى ، والشيخ عمر الشبراوى رضى الله عنهما .

وفى مقدمة هذا الورد يقول الشيخ البكرى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أورد من أراد المقام المورود ، وخص أهل الأوراد العباد بنفحات الجود ، ومنحهم من الواردات الإلهية مارقاهم ، به إلى منازل السعود ، أحمده على ما تفضل به من ملازمة الأوراد ، مع كمال الأدب والشهود وأصلى وأُسلم على الحبيب الشاهد المشهود ، صاحب المقام المحمود ، واللواءِ المعقود ، الذى عرفنا ما نقول من الأذكار فى القيام والركوع والسجود ، ﷺ وعلى آله وأصحابه ، ذوى المنهل المقصود ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ما اهتزت من الأغصان قدود وسلم تسليمًا كثيرا ما دام الوجود .

أما بعد : فاعلم أيها المريد الملازم على اقتطاف أزهار الأوراد ، من رياض الأمداد ، فى حضرات الإسعاد أنى لما رأيت النفوس متعشقة فى ذلك ، راغبة فيما هنالك ، لتنوير المسالك : تمنَّ لى أن أصنع للإخوان وردا يقتبسون من نوره عجائب فى حندس الأوهام[١] ، ويتلقون من تفريد شمروره[٢] غرائب تدق على الأفهام ،

(١) ظلمات الأوهام .

(٢) أى تغريد طائر معروف بحسن صوته .

فشرعت في ذلك معتمدًا على السيد المالك ، فأقول في ترجمته ، راجيًا فيض فضله ومنته :

هذا ورد يتلى فى السحر ، نافع - إن شاء الله تعالى - لمن واظب عليه ، مع التدبر لمعانيه ، والتفهم لمبانيه ، فتح به على العبد الفقير ، والعاجز الحقير : مصطفى بن كمال الدين بن على بن كمال الدين بن محيى الدين ، الصديقى نسبًا ، الخلوتى طريقة ، الحنفى مذهبًا وكان ذلك فى أوائل شهر ربيع الأول ، أيام زيارتنا لبيت المقدس ، وكمل فى مجلس لطيف ، وأضفت إليه بعد ذلك قصيدة ميمية ، فتح على بها سابقًا ، وصلوات على النبى - ﷺ - زدتها الآن ، وقصيدتى التى سميتها : « بالمنبهجة فى الطريقة المنبلجة ، التى على وزن « المنفرجة » وزدته بعض توسلات ، وقد رتبته على حروف المعجم ، فى أوائل توسلاته ، ليكون ذلك أسهل فى حفظ كلماته ، والله أسال أن ينفع به من لازم تلاوته ، ولم يخل مصنفه من دعواته ، إنه ولى من يناديه ، على الخصوص فى الأسحار ، بلسان الذل والانكسار فإنه لا يزال مغمورًا بآلائه وأياديه - فأقول أول ما يبدأ التالى بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وتقرأ الفاتحة مرة ، وأوائل سورة البقرة ، إلى قوله تعالى : ﴿ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] ، ﴿وإلهكُمْ إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هُو الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ ﴾[2] وآية الكرسى إلى قوله تعالى : ﴿هُمْ فيها خالدُون﴾[3] وخواتيم البقرة، ويكرر ﴿واعف عنَّا واغفِرْ لنا وارحمْنَا﴾

---

(١) تقرأ خمس آيات من أول السورة .

(٢) الآية : ١٦٣ - من سورة البقرة .

(٣) أى الآيات : من ٢٥٥ - ٢٥٧ البقرة .

(ثلاثا)، ﴿لَقَدْ جاءكم رسُولٌ مِّن أَنْفُسِكم﴾[1] .. إلى آخرها ويكرر ﴿فإنْ تَولَّوْا إلى آخرها﴾ (سبعا) ، وسورة الإخلاص (ثلاثا) والمعوذتين : مرة مرة ، ثم يقول : أستغفر الله العظيم (سبعين مرة) ثم يقول أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم بديع السموات والأرض وما بينهما من جميع جرمى وظلمى وما جنيت على نفسى وأتوب إليه (ثلاثا) ، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (ثلاثا) .

ثم يتوالى الورد بحسب ترتيب الحروف الهجائية ففى حرف التاء مثلا يقول :

إلهى تولَّنى بالهداية والرِّعاية والحماية والكفاية ، إلهى تب علىَّ توبة نصوحا لا أنقض عقدها أبدًا ، واحفظنى فى ذلك لأكون من جملة السعداء .

ويقول فى حرف الدال :

إلهى داونى بدواء من عندك ، كى يشتفى به ألمى القلبى ، وأصلح منى يا مولاى ظاهرى ولُبِّى ، إلهى دلنى على من يدلنى عليك ، وأوصلنى إلى من يوصلنى إليك .

ويقول فى الميم .

إلهى محِّص ذنوبنا بظهور آثار اسمك الغفار ، وامح من ديوان الأشقياء شقينا ، واكتبه عندك فى ديوان الأخيار .

نقول : جاء الشيخ مصطفى البكرى إلى القاهرة تسبقه أنواره ،

---

(١) الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة .

وكان الشيخ محمد الحفنى – إذ ذاك – قد بلغ من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة ، ويقول الشيخ حسن شمة : قدم السيد البكرى من الشام عام ثلاث وثلاثين وماية وألف ، فكان بمصر رجل من تلامذة السيد هو السيد عبد الله السلفينى ، فأراد الشيخ الحفنى الاجتماع بالسيد البكرى ، فسأل السيد عبد الله المذكور أن يجمعه به ، فتوجه معه إليه ، فسلم عليه ، ثم جلس ، فجعل السيد ينظر إليه ، وهو كذلك ، ينظر إليه ، ومال كل بقلبه جهة الآخر ، وحصل بين القلبين ارتباط وتعارف على ما أشير إلى ذلك بقوله ﷺ « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ » الحديث ثم إنه قام ، وجلس بين يدى مولانا : السيد البكرى ، بعد طلبه للانتظام فى سلك طريقته ، فأخذ عليه العهد حالاً ، وكانت عادة السيد إذا أراد أحد الأخذ عنه أمره بالاستخارة قبل ذلك ، وهو لم يأمره بها ، ففيه إشارة إلى شدة الارتباط ، وحين أخذ عليه قيل لبعض علماء عصره ، وهو الشيخ العالم العلامة الحبر البحر الفهامة : الشيخ مصطفى العزيزى ، إن الشيخ الحفناوى قد أخذ طريق الفقراء ، ومراده يذكر الله تعالى ، ويشتغل عن العلم يريدون بذلك لومه على ما وقع منه :

فقال له : إن الشيخ الحفناوى نطفة مطهرة ، من الأصل لا يحتاج إلى ذكر وتذكير ، وإنما يحتاج إلى ذلك أمثالنا أهل الأدران . قلت أشار إلى ذلك سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى المتن فمن حينئذ اشتغل بالذكر والمراقبة والفكر والمجاهدة .

ويقول :

ثم سار فى طريق القوم أتم سير حتى لقنه الشيخ العارف أستاذنا

السيد البكرى الصديقى ، الاسم الأول ، والثانى ، والثالث ؛ ومن حين أخذ عليه لم يقع منه فى حق الشيخ إلا كمال الأدب ، والصدق التام . وهو الذى قدمه وبه ساد أهل عصره ، فمن ذلك أنه كان لا يتكلم فى مجلسه أصلاً إلا إذا سأله ، فإنه يجيبه على قدر السؤال ، ولم يزل يستعمل ذلك معه ، حتى أذن له بالتكلم فى مجلسه ، فى بعض رحلاته إلى القاهرة ؛ وسببه : لما رأى إقبال الناس عليه ، وتوجههم إليه ، قال له انبسط إلى الناس واستقبلهم :

لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمرِ النعم ،

ومن آدابه وامتثاله لأمر السيد شيخه أنه قال له مرة :

تعال الليلة مع الجماعة ، واذكروا عندنا فى البيت ، فلما دخل الليل نزل مطر شديد ، فذهب أستاذى إليه حافيًا والمطر يسكب عليه وهو يخوض فى الوحل ، فقال له :

كيف جئت فى هذه الحالة ؟

فقال : يا سيدى إنكم أمرتمونا بالمجىء ، ولم تقيدوه بعذر ، وأيضًا لا عذر ، والحالة هذه لإمكان المجىء وإن كنت حافيًا .

فقال له : أحسنت ، فهذا أول قدم فى الكمال والصدق .

وكان جالسًا معه وهو يحرر فى الصلاة على خير البرية فتثاءب أستاذى ، فقال له : كيف تتثاءب وأنت فى هذه الحضرة ؟ ماذا صنعت حتى دخل معك الشيطان ، فإن التثاؤب من الشيطان ؟ وحضرة الشيخ حضرة الله تعالى ، وحضرة الله لا يدخلها الشيطان ؟

ثم قال له : إما فى هذا المجلس ، أو فى مجلس آخر ، إن التثاؤب على قسمين :

إما من الشيطان ، وإما من غلبة نوم أو كسل ، فلما علم صدق حله وحسن فعاله قدمه على خلفائه ، وأولاه حسن ولائه ، ودعاه بالأخ الصادق ، ومنحه أسرارا ، وأراه عيون الحقائق ، فمن ذلك أنه ذكر فى رحلته المصرية ما يدل على أنه أعطاه الاسم الأعظم » أ هـ ويقول :

« قلت وبعد تلقينه الاسم الثالث كما تقدم سافر شيخه السيد الصديقى إلى بيت المقدس ، فلما كان عام تسع وثلاثين توجه السيد من بيت المقدس قاصدًا الحجاز للحج ، فأرسل مكتوبًا فى أثناء الطريق ، وفيه دائرة فيها اسم « حق » وكتب له : برز الإذن الإلهى بأن تكون خليفة عنا ، وتأخذ العهود ، وتلقن الذكر ، وتربى المريدين » .

أذن الشيخ البكرى للشيخ الحفنى بأخذ العهود ، وتلقين الذكر وتربية المريدين ، ويحتاج هذا الموضوع إلى شىء من الشرح :

روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه : وكان عبادة شهد بدرًا وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله ﷺ ، قال ، وحوله جماعة من أصحابه :

« بَايِعونى علَى أَن لا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا ، ولاَ تسرِقُوا ، ولاَ تَزْنوا ، ولاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدكُمْ ولاَ تَأْتُوا بِبُهْتَان تفترونَهُ بيْنَ أَيْديكُمْ وأَرْجلكُمْ ولاَ تَعْصُوا فى معْرُوف ، فَمنْ وفى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ، ومَنْ أَصَابَ مِنْ ذلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فى الدُّنْيا فَهُوَ كَفَّارةٌ لَهُ ، ومنْ أصاب

مِنْ ذَلِك شَيْئًا ثُمَّ سَتَرهُ اللَّه فَهُوَ إلى الله : إنْ شَاء الله عفا عنْهُ ، وإنْ شَاء عاقبهُ ، فَبايعْناهُ على ذَلك »

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ ، وقد صلت معه إلى القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن البخارى ، قالت :

جِئْتُ رسُولَ الله ، ﷺ ، نُبَايِعُهُ ، فى نِسوَة مِن الأَنْصَارِ فَلَمَّا شرَط علينا ألاَ نُشْرِكَ بالله شَيْئًا ، ولاَنسْرق ، وَلاَ نَزْنِى ، ولا نَقْتُلَ أَوْلاَدنا ، وَلاَ نَأتِىَ بِبُهْتَانٍ نفترِيهِ بيْنَ أَيْدِينَا وأَرْجُلنا ، وَلاَ نَعْصِيهِ فِى معْرُوفٍ ، قال : « ولا تَغْشُشن أَزواجكُنَّ » .

قالتْ : فبايَعْنَاهُ ، ثمَّ انْصرفْنَا ، فَقُلْتُ لامْرأَة منْهُنَّ : ارجعى فَسلى رسول الله ﷺ : ما غِشُّ أَزْواجِنَا ؟ فَسأَلْتهُ ، فقال : « تَأْخُذُ مالَهُ فَتُحابِى بِهِ غَيْرهُ » .

ولقد وردت بيعة النساء فى « القرآن الكريم » ، بقوله تعالى :

﴿يأَيُّها النبىُّ إذا جآءكَ الْمُؤْمِناتُ يُبَايِعْنَكَ على ألا يُشْركن بالله شَيْئًا ولا يسْرِقْنَ ، وَلاَ يَزْنِين ، وَلاَ يقْتُلْنَ أوْلاَدهُنَّ ، ولا يأْتِين بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بيْن أيْديهنَّ وأرْجُلِهنَّ ، وَلاَ يَعْصِينَكَ فى معروفٍ : فَبايِعْهُنَّ ، واسْتغْفِرْ لَهُنَّ الله ، إن الله غفُورٌ رَّحيمٌ﴾[1] .

وهذه بيعة عامة :

---

(١) الممتحنة : آية : ١٢ .

وقد تكون البيعة بيعة خاصة ، كبيعة الرضوان التى يقول الله تعالى فيها :

﴿لقدْ رضِى الله عنِ الْمُؤمنينَ إذْ يُبايِعُونكَ تَحْتَ الشَّجرةِ ، فعلِم ما فى قُلُوبهِمْ ، فأنْزَل السَّكِينة عَلَيهِمْ ، وأثابهمْ فَتحًا قرِيبا﴾[1] .

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

﴿إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبايِعُونَ الله ، يدُ الله فَوْق أيْدِيهِمْ ، فَمنْ نَّكثَ فإنَّما ينْكث علىَ نَفسِهِ ، ومنْ أوْفى بِمَا عاهد علَيْهُ الله فَسيؤْتيهِ أجرًا عظيمًا﴾[2] .

ولقد بين رسول الله ، ﷺ : أن البيعة تتخذ صورًا مختلفة ، وذلك أنه مادام أساسها طاعة الله ورسوله ، فهى بيعة لله تعالى :

ومن صور البيعة مثلاً أن يمتشق الإنسان الحسام فى سبيل الله ، أو أن يطلق المدفع جهادًا للعدو ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه :

« مَنْ سَلَّ سَيْفهُ فى سَبيل الله فَقَدْ بايع الله » .

وروى ابن كثير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ، ﷺ فى الحجر [الأسود] :

« والله لَيَبعثنهُ عز وجلَّ يوم الْقيامة لَهُ عيْنانِ ينْظُرُ بهما ، ولسانٌ

(١) الفتح : ١٨ .

(٢) الفتح : ١٠ .

ينْطقُ بِهِ ، ويشْهدُ علَى منْ اسْتَلمَهُ ، بالْحقِّ ، فَمنِ اسْتَلَمهُ فَقَدْ بايع اللهَ تَعَالى » .

ثم قرأ رسول الله ، ﷺ .

﴿إنَّ الَّذِينَ يُبايعُونك إنما يبايِعُونَ الله ، يدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

قرأ رسول الله ، ﷺ هذه الآية الكريمة بعد بيانه أن من استلم الحجر الأسود فقد بايع الله تعالى .

كل هذه ألوان من البيعة ، والبيعة أوسع من ذلك .

ومن عاهد الشيخ فقد بايعه على الطاعة ، ومن بايع على الطاعة فقد بايع الله سبحانه وتعالى ؛ وليست البيعة على الطاعة الصادقة بأقل من البيعة على امتشاق الحسام ، أو استلام الحجر الأسود ، بل إن امتشاق الحسام واستلام الحجر الأسود أجزاء من البيعة على الطاعة أى إن العهد بيعة .

ويتحدث الإمام الرازى ، الحجة فى مذهب أهل السنة ، صاحب تفسير القرآن المعروف عن الشيخ ، ويشترط فيه أن يكون مخلصًا صادقًا ، قد انتهج الصراط المستقيم ، وأن يكون سالكًا .

« أما السالك فلأن الوصول تارة بالجذبة على ما قال ﷺ والسلام : جذبة من جذبات الحق ، توازى عمل الثقلين .

وأخرى بالسلوك .

والأول : لا يصح أن يقتدى به ، لأنه مثل من وجد كنزًا فصار

غنيًّا ، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا ينتفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب .

وأما الثانى : فهو الذى يصلح لتربية المريد ، لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ومنازلها ، واطلع على متالفها ، ومعاطبها أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل » .

وفى ذلك يقول الشيخ عبد الواحد يحيى :

« لا بد من التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ » .

ومن هنا كانت « الطرق » ومن هنا كانت « السلسلة » ، (وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخًا ، فيؤثر بدوره فى مريد ، أو مريدين) » .

على أنه لا جدال ، أو يجب أن لا يكون جدال ، فيما رآه سيد الطائفة الإمام الجنيد فى الشروط التى يجب أن تتوافر فى الشيخ ، إنه يقول : لا يستحق الرجل أن يكون شيخًا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى ، وأن يتورع عن جميع المحارم .

وأن يزهد فى الدنيا .

وألا يشْرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه .

وحتى يكون على علم يهدى به العباد ، فإذا مرض مريده بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه ، وإذا تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه .

ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس ، وأن يخاف ويخشى من المعاصى والأدناس .

وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة .

بعد أن بين الإمام الجنيد صفات الشيخ ، أخذ يبين للمريد ما يجب عليه التزامه فى الطريق حتى يسير على هدى فقال :

وإياك ومتابعة من لم يكن على غير هذه الصفات ، فإنه من جنود الشيطان .

ثم يأمر الجنيد المريد بهذا الأمر الواضح الذى يحمل فى نفسه دليل الصدق ويتسم بسمة الحق :

« زن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة ، فإن رأيت منه شيئًا مخالفًا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح ، فما عليك فى ردّه بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدًا » .

ويتحدث ابن عطاء الله رضوان الله عليه ، عن الشيخ ، يتحدث عنه بأسلوبه الشائق ، وبعبارته الجميلة ، وبروحانيته الجذابة فيقول :

« ليس شيخك من واجهتك عبارته ، وإنما شيخك من سرَت فيك إشارتُه .

وليس شيخك من واجهك مقاله ، وإنما شيخك من نهض بك حاله !

وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، وإنما شيخك من كشف بينك وبينه الحجاب .

شيخك هو الذى ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تتجلى فيها أنوار ربك ، أنهضك فنهضت ، وزج بك فى نور الحضرة ، وقال لك ها أنت وربك » .

ويقول أيضًا فى أسلوبه المتسم دائما بإشراقاته الوضاءة :

« والاقتداء لا يكون بولى مجهول العين ، فى كون الله ، وإنما يكون الاقتداءُ بولى دلك الله عليه ، وأطلعك على خصوصيته ، انطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، وسلك بك طريق الرشاد : يعرفك مكنونات نفسك ، وكائنها ودقائقها ، ويدلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار ممَّا سواه ويسايرك حتَّى تصل إلى الله .

أما الشيخ شهاب الدين السهروردى صاحب الكتاب الجميل النفيس « عوارف المعارف » فإنه يقول :

ولابد للمريد من شيخ مرشد إلى الحق ، يرشده ويلقنه الذكر ، ويلقى فى روعه النور ، فإن تلقين الشَّيخ يلقح باطن المريد ، ويسرى فيه كأنَّما يلقح من سراج ، فعلَى المرِيد اختبار الشَّيخ الصَّالح المشهود له بالعلم والمعارف ، واتقاء المحارم » .

ونعود إلى الشَّيخ الحفنى : لقد وجد بخطِّه ما يلى :

« هذه صورة أخذ العهد أرسلها إلى أستاذى وملاذى السيد البكرى الصديقى الخلوتى حين أذن لى بأخذ العهود على طريق السَّادة الخلوتَّية ونص ما كتب : « كيفية المبايعة للنفس الطائعة : يجلس المريد للولى الحميد بين يدى الأستاذ الذى به لاذ ، ويلصق ركبته بركبته متعلقًا

بمودته ومحبته ، والشيخ مستقبل القبلة لأنها جهة الوصلة ، ويقرأ فاتحة للأبواب الإمدادية فاتحة ويضع يده اليمنى فى يده مسلما له مستمدًا من امداده ، ويقول له المربى الألمعى قل معى : أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ، ويتعوذ ويقرأ آية التحريم :

﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا تُوبُوا إلى الله تَوْبةً نَصُوحًا ، عَسَى ربكُمْ أَنْ يُكفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكمْ ويُدْخِلكُمْ جَنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، يَوْمَ لاَ يُخزِى الله النَّبِىَّ والَّذِينَ آمنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْديهِمْ وبأَيْمانِهِمْ يَقُولُون رَبَّنا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغْفِرْ لنا إنَّكَ عَلَى كُل شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) .

ثم يقرأ آية المبايعة التى فى الفتح ليزول الاشتباه ، اقتداءً برسول الله ﷺ وهى :

﴿إن الَّذينَ يُبايِعُونَكَ إنَّما يُبايِعُون الله ، يدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهمْ ، فَمَنْ نَكَث فإنَّمَا يَنْكُث عَلَى نَفْسِهِ ، ومَن أَوْفَى بمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فسيُؤْتِيهِ أَجرًا عظيمًا﴾(٢) .

ثم يقرأ الفاتحة ، ويدعو الله تعالى لنفسه ، وللأخذ بالتوفيق ويوصيه بالقيام بأوراد الطريقة والدوام على ذوق أهل هذا الفريق ، وعرض الخواطر ، وقص الرؤيات العواطر ، وإذا وقعت الإشارة بتلقين الاسم

---

(١) التحريم : ٨ .

(٢) الفتح : ١٠ .

الثانى لقنه ليبلغ الأمانى ، وفتح له باب توحيد الأفعال إذ لا غيره فعال وفى الثالث. توحيد الأسماء ليشهد السر فى الأسماء .

وفى الرابع توحيد الصِّفات ليدرجه إلى أعلى الصِّفات ؛ وفى الخامس : توحيد الذات ليحظى بأوفر اللّذات .

وفى السادس ، والسابع : يكمل له التواضع ، ونسأل الله تعالى الهداية والرعاية والعناية والدراية ، والحمد لله ربِّ العالمين .

ويزيد الشَّيخ الحفنى الأمر إيضاحًا فى هذا الموضوع عن شيخ الإسلام العارف بالله الشيخ الأنصارى فيقول :

« ثم رأيت فى الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانيَّة وهو كتاب نحو كراس شيخ الإسلام زكريا الأنصارى مانصه :

« وإذا أراد الشيخ أن يأخذ العهد على المريد فليتطهر ، وليأمره بالتطهر من الحدث والخبث ، ليتهيأ لقبول ما يلقيه عليه من الشروط فى الطريق ، ويتوجه إلى الله تعالى ، ويسأله القبول لهما ، ويتوسَّل إليه فى ذلك بمحمد ﷺ ، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه ، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى بأن يضع راحته على راحته ويقبض إبهامه بأصابعه ويتعوذ ويبسمل ، ثم يقول :

الحمد لله رب العالمين ، أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىُّ القيوم وأتوب إليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

ويقول المريد بعده مثل ما قال ، ثم يقول له قل :

اللَّهُمَّ إنى أُشهِدُك وَأُشْهِدُ ملائِكتك وأنبِياءك ورسلك وأَوْلياءك أنّى قدْ قبلْتك شيْخًا لِى فى الله ومُرْشِدا وداعيًا إليهِ .

ثم يقول الشيخ : اللَّهُمَّ إنى أُشهِدُك ، وأُشْهِدُ ، مَلاَئكتك وأنبياءكَ وَرُسلَكَ وأوْلياءك أنّى قد قبلته ولدا فى الله ، فاقبلْه وأَقْبِلْ عليه وأصلح بنا ، واهدنا واهد بنا ، وأرشدنا وارشد بنا ؛

اللهم أرنا الحق حقًّا وألهمنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

اللهم اقطع عنا كلَّ قاطِع يقطعنا عنك ، ولاتقْطعنا عنك ، ولاتشغلنا بغيرك عنك « اهـ » أما الأسماءُ السبعةُ التى تلقن للمريد ، فإن الصوفية على وجه العموم يربطونها بسير النفس من البعد عن الله إلى القرب منه ، ومن المعصية إلى التوبه ، ومن الطاعة إلى القرب ، والنفس فى أحوالها المختلفة وفى سيرها إلى الله تعالى تتسم بصفات ، وهذه الصفات ذكرت فى القرآن الكريم ، وهى تطلق على النفس محددة بعدها وقربها وسيرها فى مراتب الصفاء ، وتحدد بالتالى بعدها وقربها من الله تعالى .

والاسم الأول من الأسماء السبعة هو :

« لآ إله إلا الله »

والله سبحانه وتعالى يقول على لسان امرأة العزيز :

﴿وَمَا أُبرِّئُ نَفْسِى إنَّ النَّفس لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا مارحِمَ ربِّى ، إن ربِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] .

---

(١) يوسف : ٥٣ .

وإذا كانت رحمة الله تعالى تأتى أحيانًا اجتباء ، وتأتى أحيانًا إنابة :

﴿الله يجْتَبِى إليْهِ منْ يَشاءُ ، ويَهْدِى إليْهِ مَنْ يُنِيب﴾[1] .

وإذا كان الاجتباء بفضل وكرم ، وإذا كانت الإنابة تحتاج إلى وسائل .. فإن من وسائل الإنابة : الذكر بـ « لا إله إلا الله » .

والاسم الأول تثبيت للتوبة ، واستكمال لها : هداية ونورًا .

ويقول رسول الله ﷺ :

« أفْضَلُ ما قلْتُهُ أنا والنَّبيون مِنْ قبْلِى : لاَ إلَه إلا الله » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فاعْلَمْ أنَّهُ لاَ إله إلا الله ، واسْتغْفِرْ لِذنْبِك ولِلْمُؤْمِنِين والْمُؤْمِنات ، والله يعْلَمُ مُتقلَّبكُمْ ومثواكُمْ﴾[2] .

والثانى : « الله » .

وتسمى فيه النفس لوّامة ، يقول الله تعالى :

﴿لاَ أُقْسِمُ بِيوْمِ الْقِيامةِ ، ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللوامةِ[3]﴾[4] .

والثالث : « هو »

وتسمَّى فيه النَّفس ملهمة ، يقول الله تعالى :

---

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) محمد : ١٩ .

(٣) القيامة : ١ ، ٢ .

(٤) واللوامة هى : النادمة على الشر إذا فعلته ، والآسفة على الخير لم لم تستكثر منه .

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] .

والرابع : « حق »

وهو أول قدم يحله المريد من الولاية – « كما مرّت الإشارة إليه » ، تسمَّى النَّفس فيه مطمئنة ، يقول الله تعالى :

﴿يأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[2] .

والخامس : « حيٌّ »

وتسمَّى النفس فيه راضية ، يقول الله تعالى :

﴿ارْجِعِى إلى ربِّكِ رَاضيةً مرضيةً﴾

والسَّادس : « قيُّوم »

وتسمَّى النفس فيه مرضية ، والله تعالى يقول :

﴿ارجِعى إلَى ربكِ راضيةً مرْضِيَّةً﴾

والسَّابع : « قهار »

وتسمَّى النفس فيه كاملة ، وهو غاية التلقين ، وكلها يلقن فى الأذن اليمنى ، إلا السابع ، ففى اليسرى ، وتلقينها بحسب ما يراه الشيخ من أحوال المريدين » .

وبذلك تكون النفس قد وصلت إلى التزكية التامة ، ووصلت بذلك إلى الفلاح ، ودخلت فى نطاق قوله تعالى :

---

(١) الشمس : ٨ .

(٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

﴿قَدْ أَفلَحَ منْ زَكَّاهَا﴾[1] .

وفى نطاق الحديث الشَّريف الَّذى يتَّجه فيه صلوات الله وسلامه عليه ، إلى الله قائلاً :

« اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تقواهَا ، وزكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ من زكَّاهَا ، أنْتَ وليُّهَا وَمَوْلاَهَا » ورسول الله ﷺ حين يدعو بهذا الدعاء ، مع ما هو معروف من أنه إمام المتقين ، ومن أن نفسه زاكية فإنَّما يهدفُ رسول الله ﷺ إلى توجيه الأمة نحو الإقبال على الله سبحانه وتعالى ، والأخذ بذلك فى طريق الكمال .

لقد ارتبط الشيخ الحفنى بشيخه العارف بالله الشيخ البكرى ، برباط وثيق ، لقد فتنه الشيخ البكرى : فتنه بعلمه ، وفتنه بورعه ، وفتنه بتقواه ؛ لقد فتنه عالمًا ، وفتنه عابدًا ، وفتنه ملهمًا ، وفتنه نورًا وضياءً .

« وحينما سافر الشيخ البكرى عائدًا إلى بيت المقدس كانت روح الشيخ الحفنى متعلقة به تعلُّقًا شديدًا :

يذكره إذا أشرق الصُّبح ، ويذكره فى الآصال ، ويذكره إذا هبَّت نسائم السَّحر ، ويذكره إذا جنَّه الليل .

وهو حينما يذكره فإنما يذكره كقمَّة من القمم التى تهدى إلى الله ورسوله ، وتوجه إلى القرآن الكريم حفظًا وفهمًا ، وتدبرًا واتباعًا ، وتهدى إلى سنة رسول الله ﷺ : تأسيًا واقتداءً ، وترشد

---

(١) الشمس : ٩ .

إلى طريق القرب من الله تعالى ، وتشرح منازل السَّائرين ، ومدارج السَّالكين ، ومعارج القدس ، ومنازل الأرواح فى سيرها فى درجات الفلاح ، وتشوق الشيخ إلى أستاذه ، فوفقه الله إلى السفر إليه ، وعن ذلك يقول الجبرتى نقلاً عن كتاب المجموع للشيخ حسن بن على المكى :

« لما أذن له السَّيد البكرى بأخذ العهود وتلقين الذِّكر لم يقع له تسليك أحد فى هذه الطريقة ، إنما كان شغله وتوجهه كلّه إلى العلم وإقرائه ، لكن ذلك بجسمه ، وأمَّا قلبه فلم يكن إلا عند شيخه السيد الصدِّيقى ، ولم يزل كذلك إلى عام تسع وأربعين فحن جسمه إلى زيارة شيخه وأنشد لسان حاله :

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يضرُّكُم لـــو كـان عندكم الكل

فأرسل إليه السيد يدعوه لزيارته ، فهام إذ فهم رمز إشارته ، وتعلَّقت نفسه بالرحيل فترك الإقراء والتدريس وتقشَّف وسافر إلى أن وصل بالقرب من بيت المقدس فقيل له :

« إذا دخلت بيت المقدس فادخل من الباب الفلانى وصلِّ ركعتين وزر محل كذا » .

فقال لهم : « أنا ما جئت قاصدًا بيت المقدس ، وما جئت قاصدًا إلا أستاذى فلا أدخل إلا من بابه ولا أصلى إلا فى بيته » فعجبوا له فبلغ السيد كلامه ، فكان سببًا لإقباله عليه وإمداده ، ثم سار حتى دخل بيت المقدس فتوجه إلى بيت الأستاذ ، فقابله

بالرحب والسعة ، وأفرد له مكانًا ، ثم أخذ فى المجاهدة من الصَّلاة والصَّوم والذكر والعزلة والخلوة ، قال : فبينما أنا جالس فى الخلوة إذا بداع يدعونى إليه فجئت إليه فوجدت بين يديه مائدة . فقال : أنت صائم قلت نعم . فقال :كل فامتثلت أمره وأكلت ، فقال : « اسمع ما أقول لك إن كان مرادك صومًا وصلاة وجهادًا أو رياضة فليكن ذلك فى بلدك ، وأما عندنا فلا تشتغل بغيرنا ولا تقيد أوقاتك بما تروم من المجاهدة ، وإنما يكون ذلك بحسب الاستطاعة وكل واشرب وانبسط » .

قال : « فامتثلت إشارته ومكثت عنده أربعة أشهر كأنها ساعة غير أنى لم أفارقه قسط خلوة وجلوة »[1] . ومنحه فى هذه المرَّة الأسرار وخلع عليه خلع القبول ، وتوَّجه بتاج العِرفان وأشهده مشاهد الجمع الأوَّل والثانى ، وفرق له فرق الفرق الثانى ، فحاز من التدانى أسرار المثانى ، ثم لما انقضت المدة ، وأراد العود إلى القاهرة ودعه وما ودّعه ، وسافر حتّى وصل إلى غزة فبلغ خبره أمير تلك القرية ، وكانت الطريق مخيفة ، فوجه معه قافلةً ببيرقين من العسكر فساروا فلقيهم فى أثناء الطريق أعراب فخافوهم فقالوا لأهل القافلة : لاتخافوا فلسنا من قطاع الطريق ، وإن كنا منهم فلا نقدر أن نكلمكم وهذا معكم » وأشاروا إلى الشيخ ، ولم يزالوا سائرين حتى انتهوا إلى مكان فى أثناء الطريق بعد مجاوزة العريش بنحو يومين ، فقيل لهم : إن طريقكم هذا غير مأمون الخطر ، ثم

---

(١) خلوة وجلوة : أى فى مجالسه الخاصة والعامة ، يعنى فى السر والعلن .

تشاوروا فقال لهم أعراب ذلك المكان : نحن نسير معكم ونسلك بكم طريقًا غير هذا ، ولكن اجعلوا لنا قدرًا من الدراهم نأخذه منكم إذا وصلتم إلى بلبيس ، فتوقف الركب أجمعه ، فقال الأستاذ « أنا أدفع لكم هذا القدر هنالك » .

فقالوا : « لا سبيل إلى ذلك ، كيف تدفع وأنت ليس لك فى القافلة شيء ؟ والله ما نأخذ منك شيئًا إلا إن ضمنت أهل القافلة » فقيل ذلك فاتفق الرأى على دفع الدراهم من أرباب التجارات بضمانة الشيخ ، فضمنهم وساروا حتى وصلوا إلى بلبيس ثم منها إلى القاهرة فسرَّت به أتم سرور ، وأقبل عليه الناس من حينئذ أتم قبول ، ودانت لطاعته الرقاب وأخذ العهود على العالم ، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار ، وأحيا طريق القوم بعد دروسها وأنقذ من ورطة الجعل مُهجًا من غيٍّ نفوسها ، فبلغ هديُه الأقطار كلها وصار له فى كثير من قرى مصر نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله تعالى بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له ، وحين تصدى للتسليك وأخذ العهود أقبل عليه الناس من كل فجٍّ وكان فى بدء الأمر لا يأخذون إلا بالاستخارة والاستشارة ، وكتابة أسمائهم ونحو ذلك ، فكثر الناس عليه وكثر الطلب ، فأخبر شيخه السيد الصدِّيقى بذلك فقال له : « لا تمنع أحدًا يأخذ عنك ، ولو نصرانيا من غير شرط » وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى ، وأوَّل من أخذ عنه الطريق وسلك على يديه الولى الصوفىّ العلامة المرشد الشَّيخ أحمد البناء الفوىّ .

وفى وفاة السَّيد البكرىّ ، يقول الشيخ حسن المكّى :

« ثم حج مولانا السيد الصدّيقى عام إحدى وستين ومائة وألف وعاد من الحجاز إلى القاهرة ، فمرض عقب دخوله مدة شهر فحان مولد السَّيد البدوىّ ، فأراد الشيخ أستاذنا أن يتخلف عن الذهاب إليه لأجل السَّيد ، فأشار له بعدم التخلف فتوجه أستاذنا إلى المولد الشريف ، فتوفى السَّيد الصدّيقى ، وهو فى المولد ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الثانى عام اثنين وستين ومائة وألف ، ودفن بالقرافة الكبرى ، خارج القاهرة وقبرهُ هناك مشهور ، وبزيارته تضاعف الأجور ، وقد عمل له أستاذى فى شهر شعبان من العام مولدًا عظيمًا شدَّت إليه الرحالُ ، وحطَّت لديه الثقالُ ، وتطاولت دونه الآمال ، وعزم على ترتيب ذلك كل عام » .

هذا عن الطريق الخاص .

أما النوع العام تلتزمه كل الطرق فإنَّ للشيخ فيه لمحات جميلة يكتبها بنفسه أو ينقلها عن غيره .

الطريق الصوفى العام :

مما اتفق عليه أئمة التصوف من قدماء ومحدثين ضرورة العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ولأئمة التصوف فى ذلك مالا يكاد يحصى من النصوص التى تختلف فى اللفظ ، وتتحد فى المعنى ، إنهم يرون أن :

« محل جواز العمل بما ألهم به الولى فى نفسه وغيره إن وافق الشريعة ، فإن لم يجده منصوصًا فى الشرع ترك العمل به فى نفسه وغيره »[1] .

---

(١) حاشية الحفنى على الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٦٧ .

وتبدأ الطرق جميعها فى التوجه إلى الله تعالى بالتوبة الصَّادقة .

وللتوبة فى الجو الإسلامى مكانة كبيرة ، وقد فتح الله أبوابها على مصاريعها للتائبين فى الليل والنهار ، وفى كل وقت وحين :

« يا عِبَادِى إنَّكُمْ تُخطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وأَنَا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ، فاسْتَغْفِرُونى أَغْفِرْ لَكُمْ »[1] .

ويقول ﷺ :

« إنَّ الله تعالى يَبْسطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوب مُسِيءُ النَّهارِ ، ويبْسطُ يدهُ بِالنَّهَارِ ليتُوب مُسيءُ اللَّيْلِ حتَّى تَطلع الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبها »[2] .

والتوبة المقصودة هنا هى : التوبة التى استوفت أركانها وشروطها ؛ يقول الإمام النووى عن شروط التوبة الصادقة :

قال العلماء :

التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصحْ توبته .

---

(١) من حديث قدسى صحيح ، رواه أبو ذر جندب بن جنادة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، والإمام مسلم فى صحيحه عن أبى موسى رضى الله عنه .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ؛ فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه ، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة » أ هـ .

ويقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه ابن عمر :

« تُوبُوا إلى الله تعالى فَإنِّى أتُوبُ إلَيْهِ كلَّ يوْمٍ مائةَ مرَّةٍ » .

وحينما كتب الشَّيخ الحفنى على هذا الحديث الشَّريف فى حاشيته على الجامع الصغير جـ١ ص ٤٠٥ قال :

(قوله : تُوبُوا إلَى الله) خطاب لكل الناس سواء :

« العوام » ، وتوبتهم الرجوع عن الذنوب .

« والخواص » ، وتوبتهم الرجوع عن الغفلة عن طاعة الله ، والاشتغال بالدنيا ، ولو أمرًا مباحًا .

وخواص الخواص ، وتوبتهم الرجوع عن الالتفات إلى ما سواه تعالى ، فأقسام التوبة ثلاثة ، وتوبته ﷺ ليست من الثلاثة ، بل إنه إذا ترقَّى إلى مرتبة تاب من التى قبلها بمعنى أنه ينسب نفسه إلى التقصير حيث لم يبذل الجهد فى الوصول إلى تلك المرتبة التى وصل إليها .

وقوله : « مائةَ مَرَّةٍ » للتكثير ، فلا ينافى الزيادة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مرَّةً﴾[1] أى أو ألف مرة – مثلاً – فلن يغفر الله لهم فلا مفهوم للتقييد بالسَّبعين .

على أن الإنسان قد يقع فى الإثم ، فإذا ما فعل فلا ييأس من روح الله ويجب عليه أن يجدد التوبة صادقًا مخلصًا .

وفى حاشية الحفنى عند كتابته عن قول رسول الله ﷺ :

«إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَحْدِثْ عِنْدَهَا تَوْبَةً ، السر بالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعلانيةِ»[2] .

يقول :

(قوله السرُّ بالسِّرِّ) يصحُّ نصبهما ورفعهما ، أى إذا وقع منه ذنب فى السرِّ ، بأن كان قلبيًّا ، كالعزم على المعصية ، أو كان بالجوارح ولم يطلع عليه أحد ، يطلب أن يتوب توبة فى السرِّ ، لتحصل المناسبة بين المكفِّر والمكفَّر ، ليكون كالدواء فى المرض الحسى ، فإن كل مرض له دواءٌ يناسبه ، هذا هو الأولى ، وإلا فتوبة السِّرِّ تكفر ذنب العلانية ، وبالعكس لكن الأولى المناسبة ، ولذا يطلب ممن عصى فى مكان ، أن لايفارقه حتى يعمل فيه عملاً صالحًا ، ليعادل الذنب ، وربما غلب العمل الصالح ، فيشهد له به ، ولا يشهد عليه بما وقع منه ، من المعصية فيه ، ويطلب ممن ارتكب ذنبًا أن لا يزيل شيئًا من شعره وظفره ، حتى يكفره بنحو التوبة[3] .

---

(١) التوبة : ٨٠ .

(٢) الإمام أحمد فى الزهد عن عطاء مرسلا .

(٣) حاشية الحفنى ج ١ ص ٧٩ .

وينقل الحفنى عن الشاذلى وعن غيره ، رضى الله عنهم أجمعين ، ما يلى :

« وقال العارف بالله الشاذلى رضى الله عنه :

« كل شهوة تدعوك إلى الرغبة فى مثلها فهى عدّة الشيطان وسلاحه ، وكل شهوة تدعوك إلى طاعة الله والرغبة فى سبيل الخير فهى محمودة ، وكل حسنة لاتثمر نورًا أو علمًا فى الوقت فلا تعد لها أجرًا ، وكل سيئة أثمرت خوفًا وهربًا إلى الله ورجوعًا إليه فلا تعدلها وزرًا » ا هـ .

ومن مقام العارفين ما حكى عن الإمام أبى محمد النيسابورى أنه دخل المسجد مرة يعتكف فى رمضان ، فرأى المتعبدين يجتهدون ، والقراء يقرءون فقطع الاعتكاف وخرج فقيل له فى ذلك ، فقال :

لما رأيت تعظيمهم بعبادتهم واعتمادهم عليها دون الله لم يسعنى إلا الخروج خوفًا من نزول البلاء عليهم .

وينقل عن أبى العبَّاس المرسى رضى الله عنه ما يلى :

قال المرسى :

كنت جالسًا بين يدى أستاذى الشاذلى ، فدخل جماعة فقال : هؤلاء الأبدال فنظرت ببصيرتى فلم أرهم أبدالاً فتحيرت .

فقال الشيخ : من بدلت سيآته حسنات فهو بَدل فعلمت أنه أول مراتب البدلية .

الذكر

بعد أن يأخذ الشيخ على المريد عهد الله على التوبة الصادقة ، يوجهه إلى الذكر .

والشيخ الحفنى يتحدث كثيرًا عن الذكر ، ولقد ألّف فيه رسالةً ، وكتب عنه هنا ، وهناك فى كثيرٍ من كتبه ، وقبل أن نتحدثَ عن آرائه فى الذكر نقول :

إن الذكر هو أساس الوصول إلى الله تعالى ، ومن أجل ذلك فإن كل الطرق الصوفية تعطى للذكر عناية خاصة ، وكلها تذكر أسماء معينةً لله تعالى ، يُرددها المريد آلاف المرات ، وينتقل فيها من اسم إلى اسم ، بحسب توجيه شيخه ، وذلك فضلاً عن الذكر بالقرآن الكريم ، وبالصّلاة على رسول الله – ﷺ – وبغير ذلك من ألوان الذكر ، كالتهليل والتسبيح والتكبير وغيرها .

يقول الإمام القشيرى :

والذكر ركن قوى فى طريق الحق – سبحانه وتعالى – بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .

والذكر على ضربين :

ذكر اللسان ، وذكر القلب .

فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير

لذكر القلب ، فإن كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه .

ولم يتحدث الصوفيةُ عن الذكر ، بالأسلوب النثرى فحسب ، وإنما تحدثوا عنه شعرًا جميلاً ، ومن ذلك ما كان الشبلى يُنشده فى مجلسه :

ذكرتُك ، لا أنى نسيتُك لمحةً ... وأيسرُ ما فى الذِّكر ذكرُ لسانى
وكدتُ بلا وَجْدٍ أموتُ من الهوى ... وهام علىّ القلب بالخفقانِ
فلما أرانى الوجْدُ أنّك حاضرى ... شهدتُك موجودًا بكلّ مكانِ
فخاطبتُ موجودًا بغير تكلمٍ ... ولاحظت معلومًا بغير عيانِ

ومن خصائص الذكر ما ذكر الإمام القشيرى ، من أنه :

غير موقّت ، بل ما مِنْ وقتٍ من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله : إمّا فرضا وإمّا ندبًا ، والصّلاة – وإن كانت أشرف العبادات – فقد لا تجوز فى بعض الأوقات ، والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات .

والصوفية فى موقفهم هذا من الذكر إنما يتابعون ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وما حثّ عليه فى كتابه الكريم – إن الله سبحانه وتعالى يصف أولى الألباب فيقول :

﴿الَّذِين يَذْكرونَ الله قِيَامًا وقُعودًا وعلى جُنوبِهم وَيَتَفكَّرونَ فى خلق السَّمَواتِ والأرضِ رَبَّنَا مَا خَلقتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحانَكَ فقِنَا عذَابَ النَّارِ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

ويقول الإمام القشيرى :

ومن خصائص الذكر أنه جعل فى مقابلته الذكر ، قال الله تعالى :
﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾[1] .

ويقول الإمام القشيرى :

« وفى خبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ » :

إن الله تعالى يقول :

« أَعْطَيْتُ أُمَّتَكَ ما لَمْ أُعطِ أمة مِنَ الأمم .. فقال : وما ذاك يا جبريل ؟ فقال : قوله تعالى (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ) لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة .

ولقد استفاض رسول الله ﷺ ، فى الحديث عن الذكر استفاضة ملأت كتبًا بأكملها ، وألفت فى ذلك كتب كثيرة ، وأبواب مستفيضة فى كتب السنة .

لقد تحدث رسول الله ﷺ عن الذكر فى صورة الاستغفار ، وعن الذكر فى صورة الصلاة على الرسول ﷺ وعن الذكر فى صورة التسبيح ، وعن الذكر فى صورة الحمد ، وعن الذكر فى صورة التكبير ، وعن الذكر بلا إله إلاَّ الله ، وعن فائدة الذكر .

وحث رسول الله ﷺ على الذكر ، وأبان أن مجالس الذكر إنما هى رياض من رياض الجنة .

ومن الحق أن نقول مع الإمام القشيرى :

---

(١) البقرة : ١٥٢ .

إن الذكر هو العمدة فى طريق القوم .

ونعود ثانية فنقول إننا قبل أن نتحدث عن آرائه فى الذكر ينبغى لكل قارئ لكتب الصوفية فيما يتعلق بمقام « الرجاء » ولكل قارئ لكتب أبى الأنوار أن يتأمل شرحه للحديث الشريف التالى :

قال الله تعالى : « إننى أَنَا الله لا إله إلا أنا ، من أَقَرَّ لى بالتَّوْحِيدِ دخل حِصْنِي ، ومنْ دَخَل حِصْنِى أَمِنَ مِنْ عَذَابِى » . الشيرازى عن علىّ .

(قوله من أقرَّ لىِ بِالتَّوحِيدِ) بأن من قال لا إله إلا الله معتقدًا معناها . وفضلها مشهور ، فإن من قالها ولازمها تحاتت خطاياه ، ودخل ساحة الرضا ، والأحاديث الدالة على الترغيب فى ذلك لا ينبغى الاغترار بظاهرها ، بأن ينهمك فى المعاصى ، ويقول : أنا أقول : « لا إله إلا الله » فتغفر ذنوبى ، لأن القصد من تلك الأحاديث ، إنما هو منع الشخص من اليأس ، وإلا فأهل الله تعالى لا ينفكون عن مقام الخوف وإن بلغوا ما بلغوا ، ولذا دخل حماد على سفيان الثورى يزوره ، وهو مريض ، فقال سفيان : أيغفر لى ربى مع تقصيرى هذا ؟

فقال له حماد : إن خيرت بين محاسبة ربى لى ، ومحاسبة والدى لى ، اخترت محاسبة ربى لأنه تعالى أرحم بى من والدى ، فقد خفف عنه الخوف رضى الله تعالى عنهما[1] .

وهذا الشرح لهذا الحديث الشريف نموذج واضح لشرح مقام

---

(١) حاشية الحفنى على الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٦١ .

الرجاء ويؤيده فى قوة ما ورد فى هؤلاء القوم الذين تكاسلوا عن العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، ويرد عليهم رسول الله ﷺ فيقول :

وكذبوا : لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

وبعد : فها هى ذى فقرات مما كتب أبو الأنوار عن الذكر تعقبها رسالته الخاصة بالموضوع يقول رسول الله ﷺ :

« إذا استيقظ الرجل من الليل ، وأيقظ أهله ، وصليا ركعتين كتبا من الذاكرين والذاكرات » .

(قوله من الذاكرين) أى بعض الذاكرين ، المذكورين فى الآية ، فإنهم أنواع ، أعلامهم الذاكر للحضرة القدسية ، منهم من لم يفتر طرفة عين ، ومنهم المداوم على التفكر فى مصنوعاته تعالى ، ومنهم المشتغل بالذكر بلسانه ، ويدخل فيهم المشتغل بعلوم الشرع وآلاته ، وإذا كتبا من الذاكرين ، ترتب لهما ما أعده الله تعالى للذاكرين ، بقوله تعالى : ﴿أعد الله لَهم مغفِرة وأجْرا عظيمًا﴾ [1] وعبارة العزيز : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات : من لا يكاد يخلو بقلبه ، أو بلسانه ، أو بهما وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر .

وقال القاضى عياض : ذكر الله ، بأن يذكر بالقلب وباللسان وذكر القلب نوعان :

أحدهما – وهو أرفع الأذكار وأجلها : الفكر فى عظمة الله

---

(١) الأحزاب : ٣٥ .

تعالى وجلاله ، وجبروته ، وملكوته ، وآياته فى سماواته وأرضه ، ومنه الحديث : « خير الذكر الخفى » والمراد به هذا .

والثانى : ذكر بالقلب ، عند الأمر والنهى ، فيمتثل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ، ويقف فيما أشكل عليه ، وأما ذكر اللسان مجردًا فهو أضعف الأذكار ، لكن فيه فضيلة عظيمة كما جاءت به الأحاديث » ا هـ بحروفه .

وقوله كتبا من الذاكرين الله كثيرًا .. إلخ .

المراد بالذكر ما يشمل التسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار .

ويقول الحفنى فى حاشيته على الجامع الصغير :

(ذكر الله) فهو أفضل شىء ، يتقرب به ، إليه تعالى ، والاشتغال بالقرآن أفضل لمن يتدبر معانيه ، فيحصل له بتلاوته الزجر والتطهير ، أما الملوث بالمعاصى الذى يقرؤه بلسانه فقط ، فينبغى له الاشتغال بالذكر الذى يطهره من المعاصى ، وأفضل أنواع الذكر : « لا إله إلا الله » أى للنفس الأمارة ، وقول أهل التصوّف : يطلب الذكر المفرد – أعنى الله الله وهكذا : محمول على النفس اللوّامة ، فإنه ثبت فيها أنه لا إله إلا الله تعالى ، حتى يصح كونها تلوم صاحبها على المعاصى ، فالمناسب لها الذكر المفرد ، لتلاحظ الذات المقدسة ، فتنتقل من اللوامة إلى المطمئنة ، أما الأمارة فالمناسب لها الذكر ، المشتمل على إثبات ونفى[1] وعلامة الأمارة : أنها كلما فعلت ذنبًا ، أحبت فعلاً آخر وهكذا فلا يغتر الإنسان ، ويصف نفسه بأنها لوامة أو مطمئنة بل يختبرها .

---

(١) أى : لا إله إلا الله .

(إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : أَنَا مَعَ عَبْدِى مَا ذَكَرَنِى ، وَتَحَرَّكَتْ بِى شَفَتَاهُ) . عن أبى هريرة .

(قوله ما ذكرنى) أى مدة ذكره لى والذكر أنواع ثلاثة :

١ – ذكر اللسان ، وإن كان القلب غافلاً ، فهو ذكر العوام ، وفيه ثواب .

٢ – وذكر الخواص : ذكر اللسان مع حضور القلب بالتفكر فى مصنوعاته ونحو ذلك .

٣ – وذكر خواص الخواص : وهو أن يغيب فى الشهود عن كل ما سواه تعالى ، ولم يخطر به غيره تعالى ، وهذا يناسبه الذكر المفرد نحو الله الله ، وهكذا : إذ ليس فى ذهنه غيره تعالى حتى يحتاج للنفى والإثبات ، فهذا إنما يكون لأهل هذا المقام ، وإن كان أهل الشريعة يقولون لا يثاب إلا بملاحظة نحو : معبود أو موجود ، لأن هذا ملحظ صوفى لأهل الحقيقة فلو أراد الجمع بين الظاهر والباطن لاحظ هذا المقدر .

(قوله خير الدعاء) أى الذكر : الاستغفار لمن هو ملوث بالذنوب لأنه من باب التخلية ، وبقية الأذكار من باب التحلية ، والأول مقدم ،ألا ترى أن تنظيف الثوب أولى ، من تبخيره مثلاً ، وهذا لا يقتضى الأمر بترك الأذكار للملوث بالذنوب ، لأن المراد أن الأولى له الإكثار من الاستغفار أكثر من بقية الأذكار فهو مثاب على الجميع .

جددوا إيمانكم أكثروا من قول : لا إله إلا الله .. عن أبى هريرة رضى الله عنه . قوله من قول : « لا إله إلا الله » : فإنها تزيد

القلب نورًا ، وهى كالسيف القاطع للنفس الأمارة ، فإنها ترقى الملازم لها إلى أن تكون نفسه لوامة ثم مطمئنة .

« أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » عن أبى سعيد .

(قوله أكثروا ذكر الله) أى بأى نوع كان ، والأولى لأهل النفوس الأمارة : « لا إله إلا الله » فإن لها سرًّا عجيبًا فى التطهير ، ولذا اختارها أولا أهل الله ، الملقنون للأذكار ، فإنها كالسيف القاطع ، ولاسيما عن شيخ .

قوله : (أكثروا ذكر الله الخ) ولذا كان السلف يلقن بعضهم بعضًا الذاكر لأخذ ذلك بالحديث المسلسل ، فإذا لقن الشيخ تلميذه انهزت تلك السلسلة ، وفاض عليه النور منها ، بقدر اعتقاده فى شيخه ، وينبغى للذاكر أن يبتدئ بالنفى من جهة يمينه ، لأن الشيطان فيها ، يذكر لفظ الله جهة يساره لأن القلب جهة يساره ، فالتحرك ، فى الذكر وارد عن السلف بخلاف التحرك فى قراءة القرآن ، والعلم فالأولى تركه ،أى : أن تقصده خلاف الأولى ، فإن غلب الحال على الشخص فلا بأس به ويسن الجهر بالذكر حيث لم يخف رياء ، ولم يشوش على نائم وإلا أسر فلا يطلق القول وذلك لأن الجهر ينشط ولذا قال شخص لشخص يذكر فى المسجد جهرًا بحضرته ، ﷺ إن هذا رياء ، فقال ﷺ : « دعوه فإنه مهيم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة فى فضل الذكر والتسبيح والتهليل

حمدًا لمن غرس أشجار التوحيد ، فى بساتين قلوب الأحباب ،ورفع ألوية التمجيد ، لمن اشتغل بذكره ، فحافظ على شروطه والآداب ، وصلاة وسلامًا على موصل الخصوصيات ، وعلى آله وأصحابه ما مدح الذاكرون فى الأحاديث والآيات .

(وبعد) فيقول فقير ربه المغنى ، الراجى عفو مولاه محمد الحفنى . هذه رسالة فى فضل التسبيح ، والتهليل مشتملة على أحاديث ، سرها يشفى العليل ، وعلى ما يطلب من التمايل ، فى ذكر الحق الجليل ، وعلى وجه الابتداء بالنفى من الجهة اليمنى والختم بالإثبات من الجهة اليسرى ، وفى بيان حكم الإسرار والجهر به نفع الله بسرها الأحباب إنه كريم جواد وهاب .

أما الأحاديث فمنها : قال رسول الله ﷺ :

إذا قال الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ « لا إِلَهَ إلا الله خرقَتِ السَّمواتِ ، حتى تقِفَ بين يَدى الله تعالى ، فَيقُولُ لَهَا : اسْكنى ، فتقُولُ : كيْف أَسْكن ، ولَمْ تَغفِرْ لِقائِلِي ؟ فقال : مَا أُجْرَيْتكِ على لِسانِهِ إلا وقد غفرْت لَهُ » رواه الديلمى بسند يعمل به فى الفضائل .

وقال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله عهِدَ إلىَ ألا يأتِينى أحَدٌ مِنْ أمَّتى بِلاَ إله إلا الله لا يخلط بِهَا شيئًا ، إلا أوْجَبَ الله لهَ الْجنَّة ، قالوا يارسول الله : وما الَّذِى يَخلِطه بلا إله إلاَّ الله : قَال حِرْصًا عَلَى الدُّنيا ، وجمْعًا لَها ومنْعًا لَها ، يقُولُ قوْلَ الأنْبياء ، ويَعْمَل عملَ الْجَبَابرةِ » رواه الحاكم والترمذى بسند يعمل به فى الفضائل .

وقال رسول الله ﷺ :

« ومن قَالَ لاَ إله إلا الله ، وجَبَتْ لهُ الْجنَّة ، وَمَنْ قالَ سُبحان الله وبحمدهِ كُتِب لَهُ مائةُ ألْفِ حسَنَة ، وَأرْبعة وعِشْرون ألف حسنَة :

فقالوا : يارسول الله إذا لاَ يَهْلِك مِنَّا أحدٌ ، قالَ : بلى ، إنَّ أحَدَكُمْ لَيَجِيءُ بِالْحسنَاتِ لَوْ وضعتْ علَى جبل لأثقلَتْهُ ، ثمَّ تَجِيءُ النِّقمُ فتذْهبُ بتلك ، ثمَّ يتَطاولُ الرَّبُّ بعْدَ ذِلك برحْمتهِ » رواه الحاكم فى المستدرك بسند صحيح .

وروى الحاكم عند شداد بن أوس قال : كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال :

« ارْفَعُوا أيْدِيكمْ فقولُوا « لا إله إلا الله »

فقلْنا .

فقَال : « اللَّهُمَّ إنَّك بعثتنى بهذِهِ الكلمةِ ، وأمرْتنِى بها ، ووعدْتنى عليها الجنَّة ، إنَّك لاَ تخلِفُ الْمِيعَاد ، ثم قال : أبْشِرُوا فإنَّ الله قدْ غفر لكمْ » .

وقال رسول الله ﷺ :

« منْ قال – إذا أصبح – : سبحان الله وبحمده ألْف مرَّة ، فقدْ اشْترى نفْسَهُ مِن الله سُبْحانَهُ وتَعَالى ، وكَان آخِرُ يوْمِهِ عَتيقًا من النَّار » أخرجه الطبرانى والخرائطى .

وقال ﷺ :

« ليْسَ مِنْ عبد يَقُول لاَ إله إلا الله مائة مرة إلاَّ وَبعَثهُ الله يوم الْقِيامةِ ، ووجههُ كَالْقمرِ ليْلَةَ الْبدْرِ ، ولَمْ يرْفَع لأَحدٍ يَوْمئِذٍ أَفْضَلَ مِنْ عملِهِ إلا من قال مِثل قوْلِهِ ، أَوْ زَاد » رواه الطبرانى بسند يعمل به فى الفضائل .

وقال رسول الله ﷺ :

« لاَ تَزَالُ « لاَ إله إلا الله » تَحجِبُ غضبَ الرَّبِّ عنِ النَّاسِ ،ما لمْ يُبالُوا بِما ذَهب مِنْ دينِهِمْ ، إذَا صلَحتْ لهُمْ دنْياهُمْ ، فإذَا قَالُوها عِنْد ذَلِكَ ، قيلَ : كَذَبْتُمْ ، لَسْتُمْ مِنْ أَهْلها » رواه البخارى بسند يعمل به فى الفضائل .

وقال رسول الله ﷺ :

« منْ قَال لاَ إلهَ إلاَّ الله يبْقَى ويفنى كُلُّ شيْءٍ ، عُوفِي مِن الْهَم والْحُزنِ » رواه الطبرانى .

وقال رسول الله ﷺ .

« اذكُرِ الله فَإنَّه عونٌ لك ، علَى ما تَطْلُب » رواه ابن عساكر عن عطاء مرسلاً .

وقال رسول الله ﷺ :

« اذْكُرُوا الله ذِكْرًا حتى يَقُول المُنافِقونَ : إنَّكُمْ تُراءون » رواه الطبرانى عن ابن عباس .

وقال رسول الله ﷺ :

« اذكُروا الله ذِكْرًا خامِلاً ، قِيل : وما الذِّكْر الْخامِل ؟ قال : الذِّكْرُ الْخَفِىُّ » رواه ابن المبارك عن حمزة مرسلاً .

وقال رسول الله ﷺ :

« أَفْضَل الْعِبادِ دَرَجةً عِند الله يوم الْقيامةِ الذَّاكِرون » رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى عن أبى سعيد .

وفى الحديث القدسىّ : (لاَ إله إلاَّ الله ، حِصْنى ، ومن دخل حِصْنى أمن عذابى) .

وقال رسول ﷺ :

« أفْضَل الذِّكرِ لاَ إله إلاَّ الله ، وَهِى أفْضل الْحسناتِ » .

وقال : « أسْعَد النَّاس بشفاعتِى يومَ القِيامةِ من قال : لاَ إله إلاَّ الله خالِصة مِنْ قلْبِهِ » .

وقال ﷺ :

« ما مِنْ عبْدٍ قالَها ثمَّ ماتَ علَى ذَلِكَ إلا دخل الجنَّةَ ، وإنْ زنا وإنْ سرقَ ، قال ذَلَكَ ثلاثًا » .

وقال رسول الله ﷺ :

« إذا مَرَرْتُم بِرِياضِ الجنَّةِ فارْتَعُوا » .

قَالوا وما رِياضُ الجنَّةِ ؟

قال : « حِلَقُ الذِّكْر » بكسر ففتح جمع حَلْقه – بفتح فسكون – وهى جماعة من الناس يستديرون كحلقة الباب .

وجاء فى حديث آخر : تفسير « رياض الجنة بمجالس العلم » .

وجاء فى حديث : تفسيرها بالمساجد .

وقد كان رسول الله ﷺ ، يبين لكلٍّ قوم ما يناسبهم .

وقال ﷺ : «ما مِن قَوْمٍ جلسُوا مَجْلِسًا وتَفَرَّقوا عنهُ ولَمْ يذْكُرُوا الله فِيهِ إلا كأنَّما تفرَّقوا عنْ جِيفةِ حِمارٍ، وكان عليهم حسرة يوم الْقيامةِ» .

التمايل فى الذكر :

وأما التمايل عند التهليل ، فقد قال الإمام الشعرانى فى الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ما نصُّه :

ومما أنكروه على القوم تمايلهم يمينًا وشمالاً ، عند قولِ : « لا إله إلا الله» . وقالوا لم يرد بذلك نص ، إنما ورد الحثّ على ذكر الله من غير ذكر تمايل .

والجواب : أن الحافظ أبا نعيم روى عن الفضيل بن عياض ، أنه قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالى تمايلوا يمينًا وشمالا ، كما تتمايل الشجرةُ فى الريح العاصف ، إلى قدام ثم ترجع إلى وراء ، فاعلم ذلك يا أخى ، وإن كنت ولابد مُنْكرا ، فأنكر على أهل المحرمات بالنصوص التى تراها فى بلدك وغيرها ولا تنكر على أهل الله ، انتهى .

والسرُّ فى الابتداء بالنفى من الجهة اليمنى كما ذكره بعض العارفين : أن النفس الأمارة فيها وهى نفس خبيثة ، قال يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿إِنَّ النفْس لأَمَّارةٌ بِالسُّوءِ﴾ وقال فيها نبينا عليه الصلاة والسَّلام : « أعدى أَعدائِكَ نفْسك الَّتى بيْن جنْبيْك » ، وذكروا أن الشيطان من جُندها لا يقدر على الدخول على الإنسان إلا بواسطتها . وهى تخيِّل للعبد كل القبائح حتّى الشرك فرد عليه بنفيه والقلب فى الجهة اليسرى وهو محلُّ الأسرار والأنوار فجعل لفظ الجلالة الشريفة عليها ليتلقى أنواره وأسراره .

وأما حكم الإسْرار والجهْر به فاعلم أن الذِّكر سرًّا أفضل لمن خاف رياء وأذية نائم أو مصلٍّ أو قارئ وإلا فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر وفائدته تتعدى للسَّامع وتوقظُ قلب الذاكر وتجمع همته إلى الفكر وتصرفُ همته إليه ويطرد النوم ويزيدُ فى الأنوار .

وأما قوله تعالى : ﴿واذكرْ ربَّك فى نفْسِك﴾[1] . الآية . فأُجيب عنه بأن الآية مكية نزلت حين كان النبى ﷺ يجهر بالقرآن فيسمعه الكفَّار فيسبُّون القرآن وَمَنْ أنزله ، فأمر بالترك وقد زال ذلك والأمر خاص به الكامل المكمَّل ﷺ الذى روحه أفضل الأرواح المقدسة ، وأمَّا غيره ممن هو محل الوسواس والخواطر الرديئة فمأمور بالجهر لأن له تأثيرًا فى دفعها .

وأما قوله تعالى ﴿ادْعُوا ربَّكمْ تَضرُّعا وخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِب

---

(١) الأعراف : ٢٠٥ .

الْمُعْتَدِينَ﴾(١) . فذلك فى الدعاء لا فى الذكر ، والأفضل فى الدعاء الإسرار لأنه أقرب للإجابة ، ولذا قال تعالى : ﴿إِذْ نَادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيا﴾(٢) وأمَّا ما نقل عن ابن مسعود أنه رأى قوما يهللون برفع الصوت فى المسجد فقال : ما أراكم إلا مبتدِعين وأمر بإخراجهم ، فغير ثابت بدليل ما فى كتاب الزُّهد بالسند إلى أبى وائل أنه قال : هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر ما جالسْتُهُ مجْلِسًا قط إلا ذكر الله أى جهرًا ، ومما يدل على طلب رفع الصوت بالذكر .

خبر البيهقى : أن رسول الله – ﷺ – مرَّ برجل فى المسجد يرفع صوته بالذكر فقيل له : يارسول الله عسى أن يكون هذا مُرائيًا ، قال : لا ، ولكنَّه أوَّاهٌ ، وخبره عن جابر : « أن رجلا كان يرفع صوته بالذِّكر فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ، فقال رسول الله ﷺ : إنه أواه » أى كثير التوجُّع من حرارة العشق لله ، فلم يطق إلا رفع الصوت بذكره .

وبالجملة فأكثر الأحاديث دالة على طلب الذكر سرًّا وجهرًا لإطلاقها وأمَّا الأحاديث المقيدة بالسرِّ فقد تقدم وجهه . وأفضله وأنفعه ما كان بحضور قلب ، ومجرد ذكر اللسان مع الغفلة لا يحرم الآتى به من الثَّواب : فلا ينبغى لمن حُرِم فضيلة حضور القلب أن يترك الذكر اللسانى ، وقد يوسوس الشيطان له فيقول له : ما فائدة ذكرك مع غفلة قلبك ، فلا تمل إليه ودم على ذكرك مجاهدًا فى ذلك اللعين ،

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

(٢) مريم : ٣ .

وارج وصول ذلك إلى القلب فيتحلّى بالكمال ، وإن كان الكلُّ يكرهون الذكر مع الغفلة نظرًا لحالهم » ا . هـ .

فإذا ما صدقت التوبة وبدأ المريدُ على الذِّكرِ أثْمر ذلك التقوى .

وعن التقوى يقول أبو الأنوار :

التقوى ثلاثة أقسام :

١ – تقوى العوام : التّنزه عن الكفر .

٢ – تقوى الخواص : التّنزه عن كلّ معصية .

٣ – تقوى خواص الخواص : التّنزه عن كل ما سوى الله تعالى .

وبمناسبة ما رواه زين بن سلمة عن رسول الله ﷺ من قوله : « اتَّقِ الله فيما تَعْلَم » .

يقول أبو الأنوار :

(وقوله : اتّق) الله ، أى خفه واخش عقابه والتقوى : جَعْلُ وقاية بين العبد وبين غضبه تعالى ، وهى امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وسمى امتثال ذلك تقوى لأنه يقى الشخص من النار .

قوله : (فيما تعلم) قيد به إشارة إلى أنَّ الجاهل ، لا يتأتى منه تقوى ، فعليه أن يتعلم أوّلا المأمورات والمنهيّات ، ثم يمتثل ذلك » ا .هـ

وإذا ما صدقت التقوى أنتجت « الاستقامة » .

والحديث الشريف الّذى رواه الإمام أحمد وغيره عن عدّة من الصحابة وهو :

« اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصُوا ، واعلَمُوا أَنَّ خَيْر أَعْمالِكُم الصَّلاَة ، ولاَ يُحافظُ عَلَى الْوُضوء إلاَّ مُؤْمِنٌ » .

يقول عنه أبو الأنوار ما يلى :

(قوله : واعلموا إلخ) أشار إلى أن من لم يقدر على أنواع الاستقامة فليحرص على أقوى أسباب الاستقامة وهو الصَّلاة والوضوءُ وأطلق الوضوء ليشمل الطهارة الحسيَّة والمعنويَّة قال العلقميُّ : خاتمة ، قال السهيلى : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقلت له : روى عنك يارسول الله أنك قلت : شيبتنى هود ، فما الذى شيبك منها ؟ أشيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : لا ، ولكن إنما شيبنى قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1] ا .هـ إذ قوله : « كما مرت » يدل على أن الاستقامة تُكون المعرفة فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه فإذا سمع « كما أمرت » علم أنه طولب باستقامة تليق بمعرفته بكمال الأمر ، وحقيق لمن فهم ذلك أن يشيب إذ لا يطيق أحد أن يأتى بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه ، بل لابدَّ أن يستصغر جميع ما يأتى به وإن كان كاملاً بالإضافة إلى عظمته ، ولذلك لما نزل : ﴿اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ﴾[2] قلقت الصحابة خوفًا من كونهم لايقدرون على القيام بمعنى ذلك ، فأنزل الله رحمة لهم : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ﴾[3] انتهى بحروفه بخط الشَّيخ عبد البرِّ الأجهورى .

---

(١) هود : ١١٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

(٣) التغابن : ١٦ .

ومن المقامات العامة بالنسبة للصوفية : الزهد .

وعن الزهد يقول رسول الله ﷺ :

« ازْهَد فى الدنْيا يُحبُّكَ الله وَازْهَدْ فِيمَا فىِ أَيْدِى النَّاس يُحبُّكَ النَّاسُ »[1] .

ويشرح الشيخ الحفنى هذا الحديث فيقول :

(قوله ازهد) من الزهد ، وهو لغة : ترك الشيء احتقارًا له سواء كان محتاجًا له أولا ، واصطلاحًا ترك ما زاد على حاجته من الحلال ، والورع ترك الحرام والشبهة فى الدنيا أى الشاغلة عن طاعة الله تعالى المترتب عليها ضياع حقوق الخلق والحق وهى المعنية بـ :

حديث تعس ، إلخ[2] .

وحديث الدنيا ملعونة ، إلخ[3] .

أما المعينة على الطاعة فممدوحة كما فى حديث :

« نعمت الدنيا مطية المؤمن بها يصل إلى الخير وينجو من الشر » .

قال المناوى : وليس من الزهد ترك الجماع فقد قال سفيان بن عيينة كثرة النساء ليست من الدنيا فقد كان على كرم الله وجهه أزهد الصحابة وله أربع زوجات وتسع عشرة سرية .

---

(١) رواه عدة من المحدثين عن سهل بن سعد .

(٢) أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط لم يرض » .

(٣) روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ؛ ملعون مافيها ؛ إلا ذكر الله سبحانه وما والاه ، وعالما أو متعلما » (وقال الترمذى حديث حسن) .

وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء .

وكان الجنيد شيخ القوم يحب الجماع ويقول : إنى أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى الطعام ا .هـ بحروفه فى شرحه الصغير[1] .

ويلتبس على بعض الناس مفهوم الزهد ، ومفهوم الثراء ، وحينما شرح الشيخ الحفنى الحديث الشريف الذى رواه الحسن مرسلا وهو :

« حُبّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خطِيئَةٍ » .

قال ، مميزاً الفرق بين مفهوم الثراء الممدوح ، ومفهوم الثراء المذموم .

« قوله حب الدنيا » أى تعلق القلب بها والانهماك على تحصيلها بأى وجه كان ، كالمكّاسين والتجار الذين يحلفون كذبًا لترويج السلعة ، أما إذا أحب جمعها لصرفها فى مصارفها كإطعام الجائع فهو محمود ، لا خطيئة ، فضلاً عن كونه رأس كل خطيئة ، ولذا ورد نعمت الدنيا مطية المؤمن بها يصل إلى الخير وينجو من الشر ، وهذه نصيحة منه ﷺ لأمته ، وإلا فكل واحد لا غنى له عن الدنيا » .

« اتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النَّساء فَإِنَّ إِبْلِيس طلاَّعٌ رصَّادٌ ، وما هو بِشيءٍ مِنْ فُخُوخِهِ بِأَوْثَقِ لِصيْدِهِ فى الأَتْقياءِ مِن النساء » .

(قوله اتقوا الدنيا) المراد بها كل ما يشغل عن الله تعالى من ذهب وفضة وغيرهما ومنه : تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ،

---

(١) حاشية الحفنى على الجامع الصغير جـ١ ص ١١٧ .

بخلاف مالا يشغل عن الله تعالى ، بل يستعين بها على مصالحه ، فهى ممدوحة ، ومنه : « نِعْمت الدُّنْيا مطِيَّةُ الْمُؤْمِن » الحديث ، فهى من حيث ذاتها لا تذم ولا تمدح ، وإنما هما من حيث ما يعرض لها قال الشاعر :

هى الدنيا تقول بملءِ فيها . الخ فهى كحيَّة فيها ترياق وسم ، فلا يسلم من سمها ويأخذ ترياقها إلا الحكيم الماهر .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة فى فضل الذكر والتسبيح والتهليل

إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته .

عن والد أبى الأحوص ، إذا آتاك مالا فلير عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنًا ولا يحب البؤس ولا التباؤس ؛ والضياء عن زهير بن أبى علقمة .

(قوله آتاك) بمد الهمزة فلير الخ .

أى فالبس الثياب الحسنة بقصد حسن كإظهار نعمة الله تعالى ويدخل فى قوله تعالى : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] أى اقصد باللبس شكر الله على نعمه ، ومحله : إن لم تكن تحت يد شيخ مرب لك لأجل أن يطهرك فالأولى لك حينئذ لبس الخشن ، فإذا طهر قلبك فالأولى لك لبس الثياب الحسنة ، ونقل أن سيدنا الحسن لبس ثوبًا بأربعمائة دينار فقال له بعض أهل الله تعالى : ثوبك لين ، فقال له سيدنا الحسن : إن قصدت به شكر نعمة الله فكم من لبس أغلى الثياب وقلبه فى التواضع والخشوع ، وورد أنه ﷺ لبس حلة بثمنٍ : نيفٍ وثلاثين ناقة ، إظهارًا لنعمة الله ، والاقتداءُ به

---

(١) إبراهيم : ٧ .

ﷺ في ذلك مطلوب لكن بالشرط السابق ، (قوله البؤس) أى التخشن في الملبس واظهار الفاقة ولا التباؤس أى إظهار التحزن والتخلقن . ا . هـ الحاشية ص ٥٣ .

أما عن المحبة : فإن أبا الأنوار ينقل عن أبى الحسن ما يلى من نصوص عدة ، إنه يقول :

« قال العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلى فى رسالة القصد(١) :

المحبة من الله أخذه لقلب عبده من كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنًا بمعرفته ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورًا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزاد ، ويعالج بما هو أعذب من لذيذ مناجاته فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم .

وقال رضى الله عنه : « أوصاف المحب أن يكون دائم الفكر ، كثير الذل قليل العبادة ، دائم الصمت ، لا يخاف ولا يرجو ، لا يسمع إذا نودى ولا يبصر إذا نظر » .

وقال رضى الله عنه :

المحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ولا مشيئة له مع مشيئته .

وقال رضى الله عنه :

---

(١) رسالة القصد هى رسالة « القصد إلى الله » ومنها مخلوطة فى المكتبة التونسية وهى عبارة عن مجموعة من كلام أبى الحسن لا تكاد تخرج عما فى الكتب المطبوعة ، ويبدو أنها من جمع أحد المريدين .

« حرام عليك أن تتصل بالمحبوب ويبقى لك فى العالمين مصحوب » .

وقال رضى الله عنه :

إذا منعك مما تحب وردك إلى ما يحب فذلك من علامة محبته لك . وينقل الحفنى عن الشبلى ما يلى :

عن الشبلى أنه قال مرة لتلميذه الحصرى فى بداية أمره :

يا حصرى ، إن خطر فى بالك من الجمعة الثانية غير الله فلا تحضرنى ، فإنه لا يجىء منك شىء .

وللحلاج سهم موفور فى المحبة ، والحفنى ينقل عنه هذه الدرر النفسية فى مقام المحبة فيقول .

« ومن كلام الحلاج : إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخواطره ، وحرس سره عن أن يسبح فيه غير خاطر الحق ، ثم قال :

ومن علامات العارف أن يكون فارغًا من أمور الدنيا والآخرة ، مستقلاً بالله .

وسئل عن صفة المريد فقال : هو الرامى بأول قصده إلى الله فلا يعرج حتى يصل .

وسئل عن التصوف وهو مصلوب ، فقال : أهونه ماترى .

وكان يقول : من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له (وهو الله تعالى) ومن لاحظ المعمول له حجب عن الأعمال .

وكان يقول : لا يجوز لمن يرى غير الله أن يدعى أنه عارف بالله عز وجل .

وكان يقول : من أسكرته أنوار التوحيد حجبته عن عبادة التجريد ، ومن طلب الحق بنور الإيمان كمن طلب الشمس بنور الكواكب .

يريد أن يقول :

اطلب الحق بنور الحق ، لا تجعل بينك وبين الحق واسطة فهو أقرب إليك من حبل الوريد » .

وكان يقول : من شرط التوكل ألا يأكل شيئًا وهو يعلم أن فى بلده من هو أحوج منه .

وللصوفية أبحاث عميقة جميلة عن اليقين فى مختلف درجاته وعن ذلك يقول الحفنى : « قوله : يقيناً » ، فى الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ما يوضح المقام ، ونص عبارته : اليقين ظهور نور الحقيقة فى قلب المؤمن عند كشف الأستار البشرية بشهادة الوجدان والذوق ، لابد لآلة العقل والنقل : وذلك يحصل بالجزم ومطابقة الواقع ، ويطلق اليقين مجازاً على نتيجة ذلك وهى اطمئنان القلب ووثوقه بموعود الله تعالى ليستريح العبد من تعب الشقاء فى تحصيل المرافق الدنيوية ، فيكون حقيقة فيما هو من قبيل الأحوال والمقامات مجازاً فى ثمراتها ؛ وقيل مشترك بينهما ، وعلم اليقين ما حصل عن نظر واستدلال ، وعين اليقين ما حصل عن مشاهدة وعيان ، وحق اليقين ما حصل

عن عيان ومباشرة ، فالأول منها كمن علم بالدليل وجود الجنة ، والثانى كمن حضرها وشاهدها ، والثالث كمن شاهدها ودخلها » .

ويزيد الشيخ الحفنى الأمر وضوحا فيقول :

« قوله علم اليقين » قال الشيخ قاسم فى كتابه « السير والسلوك » : علم اليقين هو العلم الحاصل من الدليل العقلى ، وعين اليقين هو العلم الحاصل بالمشاهدة ، وحق اليقين هو فناء صفات العبد فى صفات الحق وبقاؤه به علمًا وشهودًا وحالاً لا علمًا فقط ، فالذى يفنى على التحقيق صفاته لاذاته ، فحينئذ لابد من بقاء عين العبد الفانى فلا تفنى ذاته فى ذات الحق كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله ، بل إن العبد كلما تقرب إلى الله بالعبودية وإظهار العجز والفناء عن جميع الصفات المناقضة للعبودية ، وهبه الله تعالى فضلاً منه صفات حميدة حقيقية عوضًا عما فنى منه من الصفات الذميمة الخلقية ، والله تعالى هو القادر على كل شىء والعبد هو العاجز عن كل شىء ، فمتى شاء أذهب عن العبد ما فيه من الخبائث وأمده بما يعجز عنه كل ما سوى الله تعالى فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا راد لما قضى ولا مبدل لما حكم ، فإذا وهب عبده العاجز ما وهبه تصرف فى الأكوان بإرادة سيده » ا . هـ .

وبمناسبة الحديث عن اليقين يتحدث الشيخ عن سيدنا على كرم الله وجهه فيقول :

« وقوله من البراهين » هذا بيان لعلم اليقين المتصف به هذا الإمام كرم الله وجهه كاتصافه باليقين نفسه قبل نظره فى الدليل

فإنه قد ظهر نور الحقيقة فى قلبه عند إزالة شراك البشرية عنه فى حال تميزه ، ولذلك بادر بالإسلام قبل بلوغه فتأمله .

(قوله : ومن ثم فاختص) عبارة الشارح فى الفتوى وجه اختصاص على بذلك [أى : كرم الله وجهه] عوضًا عن الترضى [أى : رضى الله عنه] أنه لم يسجد لصنم قط فناسب أن يدعى له بما هو مطابق لحاله من تكرمة الوجه ، والمراد به حقيقته أو الكناية عن الذات ، أى حفظه أن يتوجه لغير الله فى عبادته ويشاركه فى ذلك أبو بكر ، فإنه لم يسجد لصنم أيضًا ، كما حكى عنه فناسب أن يدعى له بذلك ، وإنما كان استعمال ذلك فى حق على أكثر لأن عدم سجوده لصنم أمر مجمع عليه ، لأنه أسلم وهو صبى مميز ، فإن قلت : كثير من الصحابة لم يوجد منهم سجود لصنم كالعبادلة ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير وغيرهم ، ومع ذلك لا تقول الناس فيهم ذلك بل الترضى كغيرهم .

قلت : هؤلاء ونظراؤهم إنما ولدوا بعد اضمحلال الشرك ، وخمود نار الضلالة والفتنة فلم يشابهوا ذينك الإمامين فى تركهما أكبر فتن الشرك من السجود للصنم مع دعاء أهله للناس لذلك ؛ ومبالغتهم فى إيذاء من ترك ذلك ، وكان فى الترك حينئذ مخالفة الآباء والأقارب وتحمل المشاق التى لاتطاق من الدلالة على الصدق ما ليس فيه بعد ظهور الإسلام وزهوق الضلال ، فناسب حالهما أن يميزا عن بقية الصحابة ، بهذه الخصوصية العظمى رضى الله عنهما وكرم وجههما .

وينبه الشيخ الحفنى إلى معنى « المعية » حيثما وردت ويبين مفاهيمها

فى مختلف زواياها وذلك بمناسبة عدة أحاديث وردت فى ذلك ، منها :

قال الله تعالى : « عَبْدِى أَنا عِنْدَ ظَنِّكَ بى وَأَنَا مَعَكَ إِذَا ذكرتنى » (ك) عن أنس .

(قوله : وأنا معك) المعية ثلاثة أنواع معية العوام : معية علم ، ومعية الخواص : معية انصباب الرحمة ، ومعية خواص الخواص : معية الحفظ والعصمة من كل ما لا يليق . فإذا قيل : الله مع العوام أى بالعلم ، ومع الخواص أى بانصباب الرحمات عليهم بخلاف العوام فليسوا أهلاً لانصباب الرحمة عليهم وإثابتهم الثواب الجزيل كالخواص وإذا قيل الله مع خواص الخواص أى يحفظ جوارحهم عما لا يليق بمقامهم فى ساحة القرب منه تعالى إذا سألوه أعطاهم إلخ .

ومن هذه الأحاديث :

« أَفْضَلُ الإيمانِ أَنْ تَعْلم أَنَّ الله مَعَك حَيْثُمَا كُنْت » .

(قوله : أَفْضَلُ الإيمان) أى أفضل الثمرات التى يتحلى بها المؤمن من ثمرات الإيمان أن تعلم .. الخ أى علما شهوديًا ، لا علمًا برهانيًا ، لأن أفضل الثمرات إنما هو علم الشهود بحيث لا يشغله عنه ملأ ولا خلاء ولا نعم ولا نقم ، ومن كان ذا حاله كان شاكرًا فى حالة السراء ، صابرًا فى حالة الضراء ، راضيًا فى حالة الفقر ، وإذا وقع فى ذنب أقلع وصبر على منع نفسه من شهواتها ، وإذا كان فى طاعة جد فيها .

(قوله : أَنْ تعلم أَنَّ الله مَعَكَ) أى بالمعونة والإلطاف والإسعاد والإسعاف والمعنى : أنه معك ومطلع عليك فى سائر الأوقات ، ومن

علم أن الله كذلك لزم الأدب وراعى الحقوق على وجهها التى أمر بها ونهى عنها ، وقال بعض السادة لتلميذه : خذ هذا الطائر واذبحه فى محل لا يراك فيه أحد ، فأخذه وتوجه لما أمر به ، فدخل محلاً خربًا لا يطلع عليه أحد من الخلق ، فلما هم بذبحه قال فى نفسه : أستاذى أمرنى بذبحه بمحل لا يرانى فيه أحد والله مطلع على فأرده إليه بلا ذبح ، فرجع إليه بلا ذبح ، فقال لِمَ لِمْ تفعل ما أمرتك به ؟ فقص عليه الأمر ، فعند ذلك عرف الشيخ أنه قد وصل ، والله أعلم ا . هـ بخط الشيخ الأجهورى .

ومنها :

« الله مع الْقاضى ما لم يجر ، فإذَا جار تَخَلَّى الله عنْهُ ولزمه الشيْطان » (ت) عن عبد الله بن أبى أوفى .

(قوله : مَعَ الْقاضِى) أى بالعون والنصر بقرينة المقام إذ لو قيل معه بالعلم والإحاطة كما هو القاعدة لم يكن له خصوصية بل جميع الناس كذلك ، وإنما كانت القاعدة ما ذكر لأن ابن شاهين سأل الجنيد عن « مع » المضافة له تعالى فقال له : إن كانت فى جانب الرسل نحو : إنى معكما أسمع وأرى ، ونحو الأولياء المحفوظين فمعناها النصر والحفظ وإن كانت فى جانب العامة نحو : ما يكون من نجوى ثلاثة الخ فمعناها العلم والإحاطة (قوله : فإذَا جَارَ الخ) ليس فى زماننا هذا ، بل وقبله بأمد طويل ، من قاض إلا والله تعالى متخل عنه غير راض ، والشيطان ملازم له بالغواية التى منها الجور فى الحكم وأكل أموال الناس بالباطل ، ﴿أولئكَ الَّذِين طبع اللهُ علىَ قُلُوبِهِم وسمعِهم وأبصارِهِمْ

وأولئِك همُ الغافلون ، لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرةِ هُمُ الْخاسرُون ﴾[1]
وقد قسم بعضهم القضاة على ثلاثة أقسام : أحدها فى الجنة ، والآخران فى النار ، فالأول : من علم الحق وعمل به وقد تعسر بل تعذر وجوده فيما أعلم ، والثانى : من علم الحق ولم يعمل به وهو كثير ، والثالث : من جهل الحق ولم يعمل به وهو أكثر . عافانا الله من ذلك .

ونختم هذا الطريق العام بتوجيه نفيس لرسول الله ﷺ وهو قوله :
« تَعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَعْرِفْك فى الشِّدَّةِ » أبو القاسم بن بشران فى أماليه عن أبى هريرة .

ويشرح الحفنى هذا الحديث فيقول :

(قوله : فى الرخاء) أى فى حالة الغنى وصحة البدن والأمن ، فالتعرف فى حال الغنى بالصدقات ونفع الناس بماله، والتعرف فى حالة الصحة بالعبادات ، والتعرف فى حالة الأمن وخلو الذهن الاشتغال بمولاه تعالى لخلو ذهنه عن العدو والخوف، ولذا لما عرف الذين سد عليهم الغار ربهم فى الرخاء وذكر كل عمله الذى قصد به وجه الله تعالى فرج عنهم فى الشدة ، وكذا سيدنا يونس لما عرف الله تعالى فى الرخاء بالتسبيح وغيره نجاه من شدة الحوت ، ولما لم يتعرف فرعون ربه فى الرخاء لم ينجه من الغرق حيث استغاث ، وتعرف أهل الله تعالى الاشتغال به تعالى على الدوام وترك ما سواه فيعرفهم وقت الموت والقبر ونحو ذلك .

---

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩ .

الحفنى شيخًا للأزهر

وبعد حياة طويلة (نحوًا من سبعين عامًا) تولى الحفنى مشيخة الأزهر .

لقد كان منصب شيخ الأزهر فى عهد الشيخ الحفنى له جلاله ، وله قداسته وقد سبق أن كتبنا ما يلى :

لقد كان منصب شيخ الأزهر يمثل فى مصر « الخلافة » ، وقد كان شيخ الأزهر يعرف للمنصب حقه ، وكان يشعر بأنه أب لجميع المسلمين ؛ وهو باعتباره أبًا يحتل مكان الأبوة فى شعور واضح به .

إنه مسئول عن سلوك أبنائه : عن سلوكهم أفرادًا ، وعن سلوكهم شعبًا ، وعن سلوكهم حُكَّامًا .

وكان الشعب يلجأ إلى أبيه إذا نزلت به نازلة ، وكان الحكام يلجئون إلى شيخ الأزهر فى أمورهم الخطيرة .

وكان شيخ الأزهر قويًا فى تواضعه ، عزيزًا فى حكمته :

فى ذلك الزمن كانت الخلافة لرسول الله ﷺ فى تركيا ، وكانت تركيا معقد آمال المسلمين بسبب الخلافة ، وكانت أعين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تمتد إلى تركيا راجية ومتوسلة ، مستنصرة أو ناصرة .

إن الخلافة فى تركيا جعلت المسلمين يتطلعون إليها كرمز لرسولهم

وقائم على دينهم ، وساهر على مصالحهم ، وكان الكثير من هؤلاء الخلفاء يشعرون بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، ويعملون ما استطاعوا لخدمة المسلمين ، ونشر رسالة الله .

وكان جيش الخلفاء معدًا - بقدر الاستطاعة - لإغاثة المظلومين من المسلمين أينما كانوا .

لقد كان للخلفاء قداسة ، وكان لهم هيبة فى الشرق والغرب ، وكانوا يقولون فتصغى الدنيا لقولهم .

وكان شيخ الأزهر فى مصر يحمل نفس الإجلال والتقديس : إنه خليفة رسول الله فى هذه البقاع ، وكانت تتمثل فيه صفات يقوم الاختيار على أساسها ، كان يتمثل فيه :

١ - العلم المكتسب الذى يُحصِّله الإنسان بذكائه من الكتب الخاصة بالعلوم الإسلامية : كتب التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه والتوحيد وعلوم العربية ، وكان يمتاز على الأقل فى علم أو علمين من هذه العلوم مع إتقانه لبقيتها ، وما كان ذلك إلا لأنه كان يواصل الليل بالنهار فى التحصيل .

لقد كان العلماء إذ ذاك يستيقظون قبل الفجر ويتعبدون ويتهجدون ويبدءون الدراسة بعد صلاة الفجر مباشرة ، يبدءونها على طهر وروحانية ، وكان شيخ الأزهر طالبًا وأستاذًا على هذا الغرار .

إنه كان عالمًا ..

٢ - وكان على ثقة فى الله سبحانه ، ومن أجل ذلك لم يكن يخشى أحدًا إلا الله إنه كان من هؤلاء الذين يخشون الله ولا يخشون

أحدًا غيره ، وكانت ثقته فى الله هذه تذلل له الأُمور ، وتملأُ قلوب الآخرين هيبة .

والثقة فى الله ينبثق عنها أمور كلها سامية : ينبثق عنها . طاعته سبحانه ، وكان شيخ الأزهر دائمًا من العباد .

وكان ينبثق عنها الإخلاص فى السر والعلن ، والإخلاص من المبادئ الأُولى الواجبة فى الإسلام .

وكان ينبثق عنها التوكل عليه سبحانه ، لأنه إذا وثق به فإنه يتوكل عليه .

﴿ومَنْ يتَوكَّلْ علَى الله فهُو حسْبُه﴾[1] .

وكان ينبثق عنها فضائل أُخرى كلها سام ونافع .

٣ – ولم يكن فى ذلك الوقت شيخ الأزهر عالة على الحكومة :

وذلك أن الأزهر حفظ على الأمة لغتها وإيمانها ، فوفت له الأُمة من أجل ذلك بإجلالها واحترامها ، وبأوقاف كثيرة وقفتها عليه .

لقد كان موقوفًا على الأزهر ما لا يكاد يحصى من أموال ، وكان الأزهر يعيش فى حدود أوقافه كريم النفس ، رافع الرأس ، وما كان يشعر بضيق فى دنيا :

إنه يعرف ماله ، وفى حدود دائرته ينفق ولا يتجاوز دائرته .

وكان صدر الحاكمين يضيق بذلك أحيانًا فما كان لهم فى إخضاع الأزهر من سبيل من ناحية الرزق .

---

(١) الطلاق : ٣ .

وأخذ الحاكمون فى عصر دولة محمد على يحتالون للأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ، ويعطوه مالاً من خزينة الدولة ، يضيق عليه فيه سنويًا ، ولاتساير الدولة نمو الأزهر وتطوره ، وأصبح الأزهر فى ضيق يزداد ضيقًا كل عام .

أما أوقاف الأزهر التى أخذت منه بالمكر والخديعة ، فإنها شرعًا ما زالت له ، لأن أوقاف البر لاتؤخذ هكذا ، ولا بغير مصرفها ؛ وكل هؤلاء الذين استولوا عليها إنما يأكلون حرامًا ، ومن يأكل حرامًا لا يقبل الله منه عملاً ، « وإنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِف بِاللُّقْمةِ الْحرامِ فى جوفِهِ ، ما يتقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبعِينَ يَوْمًا » كما يقول رسول الله ﷺ ، ولا يتُقبل الله ممن يأكل أوقاف الأزهر – ولو كان قد اشتراها – دعاء فشرط استجابة الدعاء طيب المطعم ، كما قال رسول الله ﷺ حينما طلب منه سيدنا سعد أن يدعو الله له ليكون مستجاب الدعوة .

روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال : تُلِيتْ هذه الآية عند رسول الله ﷺ ﴿يأيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأرضِ حَلاَلاً طيبًا﴾[1] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ، ادعِ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال يا سعد : « أطِب مطعمكَ تكُنْ مستَجَاب الدَّعْوة ، والذِى نَفْس مُحمَّد بيدِهِ إنَّ الرَّجلَ لَيَقْذِفُ اللُّقمةَ الْحَرَامَ فى جَوْفِهِ ما يُتَقبَّل مِنْهُ أَرْبعين يوْمًا ، وأيما عبْد نبتَ لَحْمُهُ مِن السحْتِ والرِّبا فالنَّارُ أَوْلَى بهِ » .

وإن هذا الذى يأكل أموال الأوقاف إنما يتقلب فى حرام دائم .

---

(١) البقرة : ١٦٨ .

وبهذه المناسبة نَقُصُّ هنا قصة لها مغزاها الصادق :

جاء عصفور إلى سيدنا سليمان عليه السلام وقال له :

إنى مع ماترانى عليه من صغر وضعف يمكننى أن أهدم ملكك هدمًا تامًّا . ويبتسم سليمان عليه السلام ، ويسأله : كيف ؟

فقال : أذهب إلى البحر فأبتل فيه ، ثم آتى إلى أرض من أرض الأوقاف وأتمرغ فيها ، فيعلق بى من ترابها ؛ ثم آتى إلى قصرك فأنفض نفسى فيه ، فما إن يحصل فى بيتك من أرض الأوقاف شىء إلا كان ذلك سببًا فى خراب قصرك وملكك .

ومعنى القصة صادق ، وثمرة المعنى الصادق رهبة .

ويقول أسلافنا رضوان الله عليهم

حينما تخرج من أرض أوقاف كنت سائرًا فيها فنفض رجليك وملابسك حتى تخرج منها وأنت على ما يشبه اليقين من النقاء من آثارها .

إن الأوقاف الخيرة لأهلها لاتباع ، ولا تصرف فى غير مصارفها . إنها لما وقفت عليه ، وإلا فهى دمار يصيب المتسبب والآكل والمالك والمحيط كله .

ولابد من رد مال الأزهر إليه حتى تكون البركة ويكون النماء ويكون الخير ، وهذه الأوقاف ثابتة فى حجج ، ومازالت هذه الحجج محفوظة وكما اغتصبت دولة محمد على هذه الأوقاف فإنها يجب أن ترد ثانية .

هل من خيِّرين يتبنَّون الفكرة ؟
هل من مُحِبِّين للأزهر يعاونون على رد أوقافه إليه ؟
هل من محتسب يبدأ ؟
لعلَّ وعسى ، والخير فى الناس ما زال باقيًا .

٤ – وكان علماءُ الأزهر ، وكان شيخه عازفين عن دنيا يتكالب عليها الناس ، وعن رئاسات يجرى وراءها الكثيرون .

وخذ مثلاً الشيخ عبد الرحمن الشربينى الخطيب :

لقد عرضت عليه مشيخة الأزهر فأبى ، فعرضت على غيره من العلماء فلم يقبلها واحد منهم ، وعلل كل منهم امتناعه عن القبول ، إن الشيخ الشربينى أحق بها منه ، واجتمع الجميع على أنه المقدم بينهم لهذا المنصب .

وقبل الشيخ الشربينى هذا المنصب على أن يعين له وكيل ، ولكنه ما لبث بعد هذا أن استقال بعد أن استقر فى هذا المنصب اثنا عشر عامًا ، وكان له نشاط علمى بارز .

لقد كتب على المطول فى البلاغة .
وكتب على البهجة فى فقه الشافعية .
وكتب على جمع الجوامع فى أصول الفقه .
وتوّج ذلك كله بتفسيره الكبير .
ومثال آخر : إنه الشيخ سليم البشرى :

لقد تولى المشيخة عام ١٣١٧ هـ ، وزار مع الخديوى عباس معاهد الأزهر ، وكان قبل توليه المشيخة رئيسًا للجنة إصلاح الأزهر ،

وقدم مشروع الإصلاح الذى أصبحت تبعًا له رئاسة الأزهر لشيخ الأزهر ، وأصبحت مشيخته مشيخة نظامية .

أما عن نشاطه العلمى فقد كان يقرأ فى الفجر صحيح البخارى ، وكان له إسناد فى الحديث وألَّف عدة كتب فى الأدب والتوحيد والنحو ومنها شرح البردة وغيرها .

ولما هدم مصطفى كمال الخلافة بناءَ على تخطيط محكم لتمزيق المسلمين وإضعافهم زاد تطلع الناس إلى الأزهر وأملهم فيه .

لقد عُرِض على السلطان عبد الحميد رحمه الله مبالغ ضخمة : عشرات الملايين للدولة العثمانية ، وعشرات الملايين لنفسه شخصيًّا ليسمح بإقامة وطن قومي لليهود فى فلسطين ، فأبى السلطان إباء المسلم المؤمن ، وكلما ألحُّوا عليه وأكثروا من الأرقام المالية التى تدفع كلما كان إيمانه بربه أكبر ، ومنذ ذلك الزمن وضع التخطيط لهدم الخلافة ، أما الأداة المنفذة فى كثير من الخسة فهى أتاتورك .

ماذا فعل أتاتورك ، وماذا كان موقف المسلمين منه ؟ لقد أقامت الدعاية لمصطفى كمال العالم الإسلامى للعطف عليه ، وأعلنت أنه مسلم يعمل لنهضة الإسلام وتثبيت الإيمان .

ولما استتب له الأمر أبان عن نواياه الشيطانية ، فأزال الخلافة . وإزالة الخلافة أمر فى غاية الضرر بالنسبة لتركيا ، فقد نزل بها أولاً من دولة فى الدرجة الأولى يخشى حسابها إلى دولة فى الدرجة الثالثة أو الرابعة أو العاشرة .

ونزل بها ثانيًا من دولة تتزعم العالم الإسلامى ، تأمر فيستجيب ، إلى دولة لا دينية ، وفقدت تركيا بذلك الزعامة .

ثم أخذ أتاتورك يضرب بمعاوله فى وجه التشريع الإسلامى ، وفى رأسه ، وفى جسمه ، فأزال القانون الإسلامى ، وأحل محله القانون الوضعى حتى الأحوال الشخصية أفسدها إفسادًا يغضب الله ورسوله ، فأباح زواج المسلمة بالمسيحى ووصل به الأمر إلى أن كان يضرب بالرصاص من لبس الزى الإسلامى ، وأعلن لا دينية الدولة التركية ، وفصلها عن ماضيها ، وجعلها بكل ذلك دولة لا فى العير ولا فى النفير ، وحينما يكتب التاريخ الإسلامى على حقيقته سيرى الناس أن أتاتورك كان من المفسدين .

أما اللغة العربية فكأن بينه وبينها ثأرًا : لقد غير الحروف العربية وكتب التركية بالحروف اللاتينية ، فأزال بذلك ما كان بين اللغة العربية واللغة التركية فى ناحية الكتابة ، ثم قام بما سماه تصفية اللغة فأزال منها الكلمات الكثيرة العربية التى كانت بها ، وباعد بذلك بين اللغتين فى ناحية الموضوع .

وحينما حدث هذا فى تركيا :

تطلعت العيون إلى الأزهر : إذ لابد للناس من أب روحى ..

ونظروا إلى شيخ الأزهر على أنه شيخ الإسلام ، وكان شيخ الأزهر فى المستوى المأمول فيه : عالمًا كأحسن ما يكون العلماءُ زاهدًا إيجابيًا كأفضل ما يكون الزهاد الإيجابيون ، مؤمنًا بالله ، واثقًا فيه .

إنه يشهد أن لا إله إلا الله ، يشهدها بحقها فيرتفع إلى المستوى اللائق بالأب الروحى .

واحتلت مصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة الدينية فى العالم الإسلامى ، احتلت مركز الزعامة بسبب الأزهر الموجود فيها .

والواقع أن الأزهر مكث ألف عام يقوم على الحفاظ على اللغة العربية وعلى الدين الإسلامى .

وحفظ اللغة العربية بهذا البحث الدائب الدائم فى اللغة العربية ،

ووقف فى وجه كل النزعات التى أرادت بها شرًّا .

إنه وقف فى وجه الدعوة – ياللسخافة – إلى العامية .

ووقف فى وجه الدعوة الملحدة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية .

إن طائفة من المنحرفين أرادت أن تغير الحروف العربية لتفصل الكتابة عن ماض من التراث عميق ، والله يعلم أنها ما أرادت إلا الإفساد .

وبدأ بهذا الانحراف أتاتورك ، وكان فى أساس هذه الحركة كل أعداء الإسلام ، أخذت بعض الدول – مستجيبة إلى مخطط الاستعماريين والملاحدة والمنحرفين على أى وضع – تغير الحروف بالفعل ، والبعض الآخر يفكر فى تغييرها .

وإنى أعلن هنا فى غير لبس ولا غموض أن كل دولة فعلت هذا إنما فعلت ما يغضب الله ورسوله بل ما يمقته الله ورسوله ، وأن الذى يبوءُ بالإثم إنما هم المنفذون والراضون بالتنفيذ ، وأنه

يجب وجوبًا دينيًا أن يثور المؤمنون ضد هذا ويعارضوه ، كما أمكن التغيير إلى الحروف اللاتينية فإنه يمكن – وبصورة أسهل – التغيير إلى الحروف العربية .

وقام الأزهر طيلة قرون على الحفاظ على العقيدة الإسلامية ، ووقف فى وجه كل انحراف فى العقيدة آت من الشرق أو من الغرب .

ووقف فى وجه هذا الغزو الفكرى الآتى من الشرق أو من الغرب .

إن للأمة الإسلامية رسالة هى رسالة الله إلى العالم : آخر الرسالات ، طبعها الرحمة لكل عوالم الله فى الأرض وفي السماء ، ومن مبادئها العلم وتزكية النفس ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1] .

وهذه الرسالة – نقية صافية – هى المبرر لوجود الأمة الإسلامية : فإذا ما نجح الغزو الفكرى فى الخروج بهذه الرسالة عن طابعها الربانى فإنه لا يوجد ما يبرر وجود أمة الإسلام .

ولقد قام الأزهر طيلة قرون فى وجه الزحف الفكرى ليعلن للناس رسالة الله ، آخر الرسالات ، صافية نقية .

ومن هنا كان المسلمون – فى مشارق الأرض ومغاربها – يدينون للأزهر بالفضل يدينون جميعًا له بالفضل فى عقيدتهم ، وتدين له الدول العربية بالفضل فى الدين واللغة .

وكان الأزهر ومازال مقدسا عند هذه الشعوب ، وإذا سار شيخ

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

الأزهر فيها امتدت إليه الأعين ، وأصغت إليه الأذن ، وهفت إليه الأفئدة ، وغمره الناس بحبهم وتقديسهم .

وكذلك يفعلون مع المشايخ المتخرجين من الأزهر ، والذين يلبسون الزى الأزهرى .

وهذه المكانة للأزهر يعترف بها المستعمرون والمبشرون ، يقول أحدهم : إن العمامة البيضاء فى أفريقيا السوداء أخطر علينا من القنبلة الذرية .

ويقول آخر :

لا يتأتى لنا الاستقرار فى هذه البلاد مادام الأزهر موجودًا .

وتتساءل :

لماذا لم يستمر الأزهر على ما كان ؟

والواقع أن هناك عوامل كثيرة تكاتفت على النزول بالأزهر عن مكانته ، ومن أهم هذه العوامل هذا الاستعمار وهذا التبشير : ونتبين مما سبق أنه كان لابد فى نظر أعداء الإسلام من هدم الأزهر .

وبدأت عوامل الهدم :

بدأت السخرية بعلماء الأزهر ، سواء أكان ذلك فى المراحل الأولى من التعليم أو فى المراحل النهائية ، أو من المتخرجين والعلماء : بدأ ذلك فى التمثيليات ، وفى الأفلام ، وفى الصحف ، وفى المجلات .

وكان المثل الصارخ هو تلك القصة التى كتبها أحد كبار الكتاب

بفرنسا ، واتخذ من قسيس فيها مجالا لسخريته وتهكمه ، فإذا بالتليفزيون يخرجها أياما متوالية متخذًا فيها « شيخًا » مجالاً لتهكمه وسخريته ، ولم يجد المخرج أو المشرف من يقول له : إن هذا انحراف ، ولم يعاقبه أحد ولم يسئ إليه إنسان .

وهذه الأقلام المأجورة التى تكتب هنا وهناك عن التشكيك فى الدين وفى القيم الأخلاقية ؛ وفى الهجوم على التشريع الإلهى !! إنها لا تجد من يقول لها : إنك أقلام مأجورة ، وإن أقل ما يمكن فى أمثال أصحابك أن يزجوا فى السجن لتخرس منهم الألسن .

إن لكل بلد مقدسات ، ومن مقدسات أمريكا مثلا النظام الرأسمالى ومن مقدسات روسيا النظام الشيوعى ، وهذه المقدسات لا تمس .

أليست العقيدة من المقدسات التى لاتمس ؟

إن المنحرفين عقديًّا ، والمنحرفين أخلاقيًّا ، والمنحرفين اجتماعيًّا على اختلاف ألوانهم يسرحون ويمرحون كيفما شاءوا فى الأقطار العربية ، فلا يجدون من يردعهم .

وتتكاتف الأقلام المأجورة ، والأقلام المستوردة أو المنحرفة ، ووسائل الإعلام فى العمل على التشكيك فى العقيدة والقيم الأخلاقية والتشريع الربانى ، ونشر التحلل الأخلاقى بكل الطرق .

وهذه الآراء المستوردة التى تتنافى مع الدين ومع الفضيلة ، والتى يروجها اليهود فى كل مكان : هل تجد من يقف فى وجهها ؟

إن قراءة كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » مفيد كل الإفادة لمعرفة المخطط الخبيث الذى يقوم بتنفيذه اليهود :

إنهم يتبنون كل فكرة منحرفة ، وكل رأى ضال ، ويحاولون عن طريق الصحافة والكتب والإذاعة الترويج لكل منحل ، وإذاعة كل فاسد .

لقد تعاهدوا فى مواثيقهم على نشر آراء طائفة معينة من الذين اتخذوا مهنة إبليس فى العمل على إفساد العالم ، والترويج لها :

إنهم يقولون :

نحن الذين رتبنا نجاح كارل ماركس .

لقد رتبوا نجاحه لأنه يفسد على الناس النظام الطبيعى والربانى فى الاقتصاد عن طريق المذهب الشيوعى ، وهو مذهب يتنافى مع الطبيعة ومع الأديان .

وهو – من أجل معارضة الأديان له – يدعو إلى إزالة الدين ، ويقول عنه : إنه أفيون الشعوب .

لما قيل له : ولكن لابد من بديل عن الدين لأن الناس لا يعيشون بغير عقيدة ، قال إن البديل للدين هو المسرح ، الهوهم بالمسرح ، انشروا المسرح فى كل مكان فيجد فيه الناس البديل عن الدين ، ثم إن الشيوعية عقيدة .

وأخذت معاول الهدم الشيوعية تنال من الدين فى كل مكان تسود فيه الشيوعية ، وهى لا تنال من الدين بأسلوب فيه هوادة ورأفة ، وإنما تنال من الدين ومن رجال الدين بأسلوب عنيف قاس .

إنها مجازر تقام ودماء تسفح ، وسجون تملأ ، وتفنن فى التعذيب ، أما الخراب فإنه ثمرة كل ذلك .

وكارل ماركس يهودى .

ويقول اليهود فى بروتوكلاتهم :

نحن الذين رتبنا نجاح دارون .

ودارون هو صاحب نظرية التطور أو النشوء والارتقاء ، أو كما يقول التعبير الشعبى ، الإنسان أصله قرد .

وهى نظرية تتنافى مع كل الأديان التى ارتقت بالإنسان معبرة عن الحقيقة الكريمة : الإنسانية أصلها آدم : خلقه الله بيديه ، وسواه ونفخ فيه من روحه ، وبدأ إقامته بالجنة .

وفرق هائل بين النظرتين :

ونظرية دارون لم تثبت ، وهى فى كل يوم تزداد ضعفاً وتوشك الأوساط العلمية أن تلفظها نهائيا .

إن الإنسانية متطورة فى العلوم المادية المكتسبة ، وهذه حقيقة لاجدال فيها : لقد تطورت من الإبرة إلى ماكينة الخياطة ، هذه الماكينة التى تطورت هى الأخرى من حال إلى حال .

وتطورت فى وسائل طهى الطعام .

وتطورت ومازالت فى جميع أدوات الطب وآلات الهندسة .

ولكن الفكر – عقيدة وأخلاقا وتشريعا – والذهن ، والذكاء ، والعقل : إن كل ذلك لاتطور فيه ، وانف عن الإنسانية الحالية علومها المادية وما اكتسبته من ثقافة حسية متوالية ، ومرتب بعضها على بعض ، تجدها هى الإنسانية التى كانت قبل التاريخ فكرًا وعقلاً وذكاء .

هذا هو الواقع ، أما إذا قلت إن الإنسانية متطورة عقلاً وذكاء وذهنًا ، فإنك تكون قد هدمت كل القيم الفاضلة بجرة قلم ، وذلك أنه مادامت الإنسانية – فكرًا وعقلاً وذكاء وذهنًا – متطورة ، فإن كل قيمها الفاضلة الحالية نسبية متطورة معها ، فلا يتأتى الحديث عن حق فى العقيدة ، أو عن حق فى الأخلاق ، أو عن حق فى التشريع ، أو عن حق فى نظام المجتمع ، وتنهار بذلك الأخلاق والأديان ، والقيم والمثل ، ولا يصبح للإنسانية إلا الشهوات والغرائز .

إذا أخضعت القيم العليا للنسبية وللتطور فلا قيم ، وثمرة نظرية دارون أو خرافة دارون إنما هى هدم القيم العليا .

ومن أجل ذلك رتب اليهود نجاحها .

ويقول اليهود :

نحن الذين رتبنا نجاح ، فرويد .

وفرويد هو العالم اليهودى المزيف ، ونظريته أكبر مثل على التزييف الذى يتحالف فيه المزيف مع الشيطان ليفسدا الإنسانية فى النظرة إلى فضائلها ومثلها ومكارم الأخلاق فيها .

إنه يعزو – ياللسخافة – كل عمل وكل سعى إلى باعث من الغريزة الجنسية ، وليس سعى الإنسانية إلا نوعًا من إرضاء هذه الغريزة .

ورتب اليهود نجاحه ليخطوا بالإنسانية من مثل عليا وقيم ومكارم أخلاق إلى غريزة هى الغريزة الجنسية .

الرحمة ، الرأفة ، العطف على اليتيم والمسكين ، الشعور بضرورة

العدالة ، الإنصاف ، تزكية النفس ، المروءة . كل ذلك فى أساسه — إنما هو الغريزة الجنسية .

وليس بغريب أن يقول فرويد اليهودى ذلك ، وليس بغريب أن يرتب اليهودى نجاحه من أجل ذلك ، لأن فى ترتيب نجاحه هدم بمعاول من فولاذ لكل المثل الدينية الكريمة .

ويقول اليهودى : نحن الذين رتبنا نجاح نيتشه .

ونيتشه هو المنكر للأديان وللألوهية وللأخلاق ، وهو يجدد دعوة أبيقور بالاستمتاع على أية وسيلة كان الاستمتاع .

إنه يقول : إذا كان استمتاعك فى أن تسيل الدماء أنهارا ، وأن تمشى على رءوس بنى البشر فلتفعل .

وهو الذى يقول : إن ما تعارف عليه الناس من أخلاق وفضائل إنما هو ضعف فى الطبيعة .

ومن سخرية المقادير أن هتلر طبق على اليهود نظريات نيتشه فأقاموا الدنيا وأقعدوها صريخًا وولولة واستغاثة ، وكان ما فعله هتلر هو نوع من ثمرة دعايتهم لنيتشه ، فلقد طبق عليهم نظريات من رتبوا نجاحه .

إن اليهود رتبوا نجاح هؤلاء ، ورتبوا نجاح كل مفسد ، ونشروا كل موبقة ، ودعوا إلى كل انحراف ، وفعلوا ذلك عن تخطيط ، هو إفساد الإنسانية ليسودوا من وراء ذلك ، ويتمكنوا ، ويسيطروا على العالم .

ووقف الأزهر فى وجه كل ذلك ، وقف كالطود الراسخ يدافع

عن الذاتية الإسلامية ، ويحاول فى صمود لا يلين أن ينفى عن الذاتية الإسلامية الدخيل والغزو الفكرى ، وما لانت قناته يومًا ما .

وكان لابد من النيل منه فى أسلوب متستر ، أو فى أسلوب سافر - ودأب الذين استجابوا للانحراف على النيل منه مرارًا وتكرارًا .

وهذا الدأب الملح جعل بعض الطيبين ينساقون - عن غير شعور - إلى نقد الأزهر متسترين أو معلنين ، وأصبحت مصيبة الأزهر بهم هم الآخرون كبيرة .

والذى أحب أن أقوله عن ملاحظة دقيقة هو أن كل شخص يحاول النيل من الأزهر إنما فى قلبه دغل ، وفى نفسه شر : سواء أكان من المنحرفين بالفعل ، أو من « الطيبين المنفعلين » الذين خدعهم كثرة نقد المنحرفين فساروا وراءهم .

والذى أحب أن أقوله أيضًا إن الأزهر فى محنته الحالية لايجد من يأخذ بيده من هؤلاء المؤمنين النابهين .

وفى مصر - والحمد لله - من المؤمنين النابهين الكثير ، ولكنهم انصرفوا فى إهمال غير شاعر ، أو فى نوع من السلوك اللاشعورى عن الأخذ بيد الأزهز والحدب عليه ، وهم بذلك آثمون .

وأحب أن أعلنها سافرة وأقول : إذا تكاتف المبطلون على النيل من الأزهر فى الإذاعة أو فى التليفزيون أو فى الصحف أو فى ميزانيته أو فى سيره فى نهضته ، فإنه يجب أن يتكاتف الخيرون على أن ينصروه مجاهدين بذلك فى سبيل الله ، فإذا لم يفعلوا ذلك فهم آثمون : آثمون فرادى ، وآثمون جماعات .

ما هو الأزهر ؟ ...

إنه الممثل للإسلام ، القائم على نشره .

إنه رمز الإسلام ، فإذا أهين رمز الإسلام أو نيل منه فإن على هؤلاء الذين يشعرون بالإسلام يملأ جوانحهم أن يهبوا مدافعين عنه ، وهم بذلك إنما يدافعون عن الإسلام وينصرونه .

وهؤلاء الذين يملأ حب الوطن أفئدتهم يجب عليهم أن يأخذوا بيد الأزهر ، لأنه هو الذى مكن لمصر أن تحتل مركز الزعامة بين الدول الإسلامية .

أما أبناء الأزهر فيجب عليهم أن يمثلوا الأزهر خير تمثيل : سلوكًا وعلمًا ، وكل من حاد من أبناء الأزهر عن الاستقامة : سلوكًا وعلمًا ، فإنه فى مقت الله وفى غضبه ، وإثمه عند الله أكثر من إثم غيره .

يجب على أبناء الأزهر : طلابًا وأساتذة أن يمثلوا حقًّا الخلافة لرسول الله ﷺ ، وقد كان من شعاراته

﴿ربِّ زدني علمًا﴾[1] .

وكان منها :

« إنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاَقِ » .

تولى مشيخة الأزهر وهو فى أوج جهاده فى ثلاثة ميادين :

١ – ميدان الجهاد فى المجتمع حتى تستقيم الأمور .

٢ – ميدان تربية المريدين .

---

(١) طه : ١١٤ .

٣ - الميدان العلمى وإثراء الفكر العربى والإسلامى .

أما الميدان الأول فقد كان أشق الميادين ، وذلك أن النزاع بين المماليك بعضهم وبعض كان مستمرًا ، والنزاع بينهم وبين الشعب أيضًا كان مستمرًا .

كانت شهوة الحكم والسيطرة والسلطان فى نفس كل زعيم من زعماء المماليك ، ومن هنا كانت المؤامرات والغدر والحروب مستمرة لاتكاد تهدأ ، وكانت الإتاوات والضرائب تفرض على الشعب الذى ينوء بحملها ، ومن أجل ذلك كان تذمره .

كيف يستقر الأمر ؟ وكيف يهدأ المجتمع ؟

لقد شغل ذلك كثيرًا من وقت الشيخ وجهده ، ولم تكن الأمور ميسرة ولكنه لابد مما ليس منه بد ، وما ليس منه بد هو حمل الرسالة التى نيطت به .

وهى الجهاد للإصلاح فى جو المماليك فيما بينهم ، وللإصلاح فيما بينهم وبين الشعب .

وحمل الشيخ الرسالة فى قوة ، ونأخذ من ذلك مثالاً واحدًا يبين الصورة القوية التى كان يتدخل الشيخ بها فيما بين المماليك .

لقد كان النزاع بين المماليك على قدم وساق ، وانقسموا كما هى العادة إلى فريقين متعارضين مسلحين ، وها هى الحرب - إحدى الحروب - توشك أن تبدأ ، ويصور الجبرتى ذلك فى دقة ، ونقتطع من الجبرتى فى قطعة من حديثه منفصلة عن السابق لها واللاحق بها إذ أنها على هذا النسق كافية فى بيان المطلوب ، يقول الجبرتى :

... . فعمل الأمراء جمعية ، وعزموا على تشهيل تجديده ، وتكلموا وتشاوروا فى ذلك ، فتكلم الشيخ الحفناوى فى ذلك المجلس وأفحمهم بالكلام ومانع فى ذلك وقال : « أخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد ؟ على بك هذا رجل أخوكم وخشداشكم ، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم وأرحتم أنفسكم والناس » ؟

وحلف أنه لا يسافر أحد بتجريده مطلقًا ، وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبدًا .

فقالوا : « إنه هو الذى يحرك الشر ويريد الانفراد بنفسه ومماليكه وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا وفعل مراده فينا » .

فقال لهم الشيخ « أنا أرسل إليه مكاتبة فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رد الجواب » .

فلم يسعهم إلا الامتثال ، فكتب له الشيخ مكتوبًا ووبخه فيه وزجره ونصحه ووعظه وأرسلوه إليه .

فلم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أيامًا ومرض ورمى بالدم وتوفى إلى رحمة الله تعالى ، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ليتمكنوا من أغراضهم ، ا . هـ .

بعد أن مات الشيخ الحفنى قام الأمراء بما أرادوا ولكن كلمة الشيخ الحفنى لهم : « وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبدًا » تحققت تحققًا كاملاً وذلك أنهم لم يحصل لهم خير وهزموا .

ونكتفى بهذا لنبين مكانة الشيخ الذى لم يجرؤ أحد منهم على

مواجهته علانية مع ما فيهم من غطرسة وكبرياء ، ومع مالهم من سلطان وسيطرة .

وإذا كانوا قد أسروها فى أنفسهم واتبعوا أسلوب الخيانة والغدر بالنسبة للشيخ فإن الله سبحانه أراهم عاقبة مكرهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

وكان الشيخ إذ ذاك فى الثمانين من عمره تقريبًا .

هذا نموذج مما كان يقوم به الشيخ من جهد فى إصلاح أمر المجتمع وإعادة الوحدة له .

٢ - وفى صدد صلاح المجتمع أيضًا من الناحية الشعبية أخذ الشيخ فى تربية المريدين ، لقد أخذ فى تربية المريدين من قبل مشيخة الأزهر ومن بعدها .

ولقد أخذ فى تربية المريدين بعد أن أمره شيخه بذلك وقد كان قبل هذا الأمر ممتنعًا امتناعًا تامًا عن ذلك ! لابد من الإذن ولابد من الأمر .

أما الوعظ العام وأما النصيحة فقد كان الشيخ قائمًا بهما من قبل أن يكون مريدًا ومن بعد أن كان مريدًا ، ومن قبل أمر الشيخ له بأخذ العهود ومن بعد : وذلك أنهما لا يحتاجان إلى أمر فهما داخلان فى نطاق الدعوة العامة التى أمر المسلمون بها :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] .

ويقول الشيخ حسن شمه :

---

(١) النحل : ١٢٥ .

اعلم أنه حين تصدى للتسليك وأخذ العهود أقبل عليه الناس من كل فج عميق لأخذ الطريق ، وكان فى بدء الأمر لا يأخذون إلا باستخارة واستشارة وكتابة أسمائهم ونحو ذلك من آداب ، فكثر الناس عليه وكثر الطلب فأخبر شيخه السيد الصديقى بذلك ، فقال له لا تمنع أحدًا يأخذ عنك ولو نصرانيًا من غير شرط ، قال رضى الله عنه : فنزلت عقب ذلك لزيارة سيدى أحمد البدوى ، فلقينى خلق كثير لأخذ العهود فرأيت فيهم نصرانيًّا فمنعوه قال ، فتذكرت قول أستاذنا لا تمنع أحدًا ولو نصرانيًّا فقلت لهم ، دعوه لعل الله أن يهديه فكان كذلك ، قلت تقدم أنه أسلم على يديه خلق كثيرون من النصارى فحينئذ كثر الناس ولم يمنع أحدًا أبدًا حتى الآن .

ولقد عد الشيخ حسن شمه ما يقرب من ثلاثين عالمًا من كبار العلماء ، أخذوا العهد عليه ، وهؤلاء العلماء كانوا هداية للمجتمع : إرشادًا وسلوكًا .

لقد كانوا دعاة بعلمهم الغزير وتآليفهم النفيسة ، وكانوا دعاة بسلوكهم المستقيم ، وكانوا دعاة بالموعظة تخرج من قلب أسلم مقاليده لله سبحانه .

ولقد أرّخ الشيخ حسن شمه لكل منهم بترجمة مناسبة ، وأرّخ للكثير منهم الجبرتى بكلمات تعلن عن سماتهم وعن جهادهم فى سبيل الله .

ونكتفى نحن هنا من بين هؤلاء بنقل ترجمتين من هذه التراجم ، أولاهما ترجمة الشيخ الدردير رضى الله عنه ، وللشيخ الدردير مكانته

ومنزلته فى العلم والتصوف ، إنه مؤلف من خيار المؤلفين وهو قدوة يأتم برسول الله ﷺ فى سلوكه ، وله مكانته فى الأجواء المصرية على اختلاف درجاتها فى الثقافة ، وقد كان من كبار المحبين لشيخه ، وقد كتبنا عنه كتابًا مستفيضًا .

يقول الشيخ حسن شمه عنه :

ومنها شيخ الفروع والأصول ، الجامع بين المعقول والمنقول ، الحائز قصب السبق فى مضمار العلوم ، علامة الزمان ، والحامل فى وقته لواء العرفان ، خاتمة المحققين ، وإنسان عين المدققين ، الشيخ أحمد العدوى الملقب بدردير ، اشتغل رضى الله عنه بالعلم على مشايخ كثيرين ، وأخذ عنهم فى المعقول والمنقول حتى برع وفاق معاصريه وأذن له بالافتاء والتدريس فدرس وأفاد وألف فأجاد ، ثم جذبته العناية إلى نادى الهداية ، فجاء إلى الشيخ وطلب منه تلقين الذكر ، فلقنه وسار أحسن سير وسلك أحسن سلوك ، ثم لبس التاج وصار خليفة مُجازًا بأخذ العهود والتلقين والتسليك ، مع المجاهدة والعمل المرضى الموافق للكتاب والسنة ، سمعت أستاذى يثنى عليه فيقول : ماله نظير ، وحاله جميل ، وهو من الصدق فى درجة عليا ، ومن الأدب والتواضع فى أعلى منها . وسمعته يقول لأستاذى : كنت قبل اليوم أقول وأنا اليوم أكثر مرادى منكم لو أن تعرفوا واحدًا يقال له أحمد الدردير فى الوجود أى فإن ذلك غايته ، عزه وشرفه رضى الله عنه وعنا به ..

أما الترجمة الثانية فيتحدث عنها الشيخ حسن شمه قائلاً :

ومنهم [ممن أخذ عن الشيخ الحفنى]علامة وقته وأوانه ، الآخذ

من كميت البلاغة بعنانه ، الولى الصوفى ، من صفا فصوفى ، المدره البارع الملسان ، المحقق الإنسان ، الشيخ حسن الشبينى ثم الفوى ، رحل من بلدته فوه إلى الجامع الأزهر للاشتغال بالعلم ، وأخذه عمن يؤخذ منهم ، فحين دخله حضر مجلس العالم العلامة الفقيه المدرس الشيخ أحمد الديربى ، فجعله محليًا عليه فى الدرس ، فقيل له فى ذلك ، فقال : هذا عالم ما جاء من بلده حتى قرأ الأشمونى والمختصر ونحو ذلك ، أخبرنى ، نفعنا الله به ، أنه كان ملازمًا لولى من أولياء الله تعالى فحين تعلقت نفسه بالجامع الأزهر ، توجه مع هذا الولى لزيارة ثغر دمياط فنام إلى جانبه ليلة فرآه فى النوم وقد أسقاه من إبريق لبنًا أو ماءً ، وقال له : هذا علم النحو وهو أصعب العلوم فى الأزهر ، قال لى ، ثم انتبهت فقلت له يا مولانا الشيخ رأيت ما هو كذا فقال لى على الفور : أسكت ، أضغاث أحلام ، لأن الولى المذكور من الملامتية لا يحب أن يظهر لنفسه حالاً ، ثم أنه جاور عقب ذلك بالجامع الأزهر ، فحين اشتغل بهذا العلم فتح عليه فى أقرب مدة ، ثم اشتغل بأخذ علم الفقه وغيره من حديث وتفسير وأصول ومنطق ومعانى وبيان وغيرها من سائر العلوم العقلية والنقلية ، حتى برع وفاق على أقرانه ، وصار علامة زمانه ، وجذبته أيدى العناية إلى حضرة أستاذى فأخذ عليه العهد ، ولقنه أسماء الطريق السبعة – على حسب سلوكه فى سيره ، ثم ألبسه التاج وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك وصار خليفة محضًا ، فأدار مجالس الأذكار ودعا الناس إليها فى سائر الأقطار ،

وفتح الله عليه باب العرفان حتى صار ينطق بأسرار القرآن ، ويتكلم فى الحقائق فيعيى الصامت والناطق ، سمعت أن أستاذى قال ، وقد ورد عليه منه مكتوب : الحمد لله الذى جعل فى أتباعنا من هو كمحيى الدين بن العربى ، قلت وسمعت منه رضى الله عنه وهو يقول فى حقه : الشيخ حسن الشبينى هذا أكبرى أعطاه الله قوة فى معرفة علم أهل العرفان ، وإنه أعلم منى بهذا الفن ، وإذا تكلمت معه فيه فإنما هى مشاركة ، وإلا فأنا لا أفهم كفهمه وناهيك بهذه الشهادة !

ورأيت له تأليفًا على أسماء الله الحسنى شرحها بلسان الحقيقة من ذوقياته فأبدع وأغرب وبرع وأعرب : ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ﴾[1] غير أنه لابس ثياب الخمول وسالك من باب الذل فى الوصول كثر الله فى الوجود من أمثاله وأفاض عليه وابل إفضاله .

٣ – أما الأمر الثالث الذى كان الشيخ معنيًا به أثناء توليه مشيخة الأزهر فهو الجانب العلمى ، وقد كان معنيا بهذا الجانب قبل توليه مشيخة الأزهر ، ولكنه حين تولى مشيخة الأزهر عنى على الخصوص بسنة رسول الله ﷺ وبرع فى ذلك براعة فائقة وأصبح فى هذا من كبار المحدثين رواية ودراية .

لقد شرح فى هذه الفترة كتاب « الجامع الصغير » للإمام السيوطى .

وكتاب الجامع الصغير هذا رتبه الإمام السيوطى على حروف المعجم ، وذكر فيه الأحاديث مرتبة بحيث إذا عرف الإنسان أول

---

(١) الجمعة : ٤ .

الحديث يمكنه أن يكشف عليه فى الكتاب المذكور ، فيعرفه ، ويعرف درجته أيضًا من الصحة والحسن والضعف ، وهو كتاب لا يستغنى عنه عالم من علماء الشرع محدثًا كان أو فقيهًا ، وفيه أكثر من عشرة آلاف حديث .

وقد انتهى أبو الأنوار من شرحه قبل أن ينتقل إلى رحمة الله تعالى بعامين تقريبًا : إذ يقول أحد مريدى الشيخ فى نهاية الكتاب : « وكان الفراغ من قراءة شيخنا العلامة محمد الحفنى لهذا الجامع فى يوم السبت المبارك السابع من شهر ربيع الأول من شهور سنة تسع وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام » .

وهذا الشرح أو هذه الحاشية - على اختصارها - تبين أن الشيخ برع فى كل العلوم الإسلامية : من حديث وفقه وغيرها ، وفى العلوم العربية من نحو وصرف ولغة .

والذى يعنينا هنا على الخصوص هو : الحفنى محدثًا .

ومن أجل ذلك نركز على ماورد فى شرحه للجامع الصغير ، ونكتفى بنماذج وإلا فإن الكتاب بأجمعه جدير بالتأمل المتبصر ، ونبدأ بتعريفه للسنة ، إنه يقول :

١ - تطلق السنة على ما أخذ من الأحاديث صريحًا من الأحكام التى لا يمكن أخذها من الكتاب إلا بمزيد مشقة اجتهاد واستنباط ومن ذلك قولهم : دل على هذا الحكم الكتاب والسنة .

٢ - وتطلق السنة على ما ثبت كونه مطلوبًا مقابلاً للغرض سواء ثبت بالكتاب أو السنة أو الإجماع .

٣ - وتطلق على ما واظب عليه ﷺ .

فلها ثلاث اصطلاحات :

٤ - لكن فى الفقه تطلق على ما فعله ﷺ سواء واظب عليه أم لا ؛ فالأول المؤكد ، والثانى المستحب ، فيكون اصطلاحًا رابعًا[1] .

أما عن كتب السنة المتداولة فإنه يقول عن بعضها :

الجامع الصحيح للبخارى : ألفه فى مكة ، وكان لا يضع فيه حديثًا إلا إذا اغتسل من ماء زمزم ، وتطيب ، وصلى ركعتين .

وأُخِذَ من ستمائة ألف حديث .

ومسلم : أخذه من ثلاثمائة ألف حديث .

وقد ألان الله تعالى الحديث لأبى داود كما ألان الحديد لسيدنا داود وكتابه من الكتب الأربع .

وفيها الصحيح والحسن والضعيف بخلاف البخارى ومسلم ليس فيهما الضعيف بل : الصحيح والحسن .

أما عن مسند الإمام أحمد فإنه يقول :

أى الأحاديث المسندة ، وفيه نحو ثلاثين ألف حديث ، وقيل أربعين ألفًا ، وليس فيه موضوع إلا أربعة ، منها حديث دخول عبد الرحمن بن عوف الجنة ، زحفًا كما ذكر المناوى ، وإن وجد فى كتب الأفاضل ؟

---

(١) حاشية الحفنى على الجامع الصغير جـ١ ص ٣٢٠ .

وعن « الحلية » لأبى نعيم وهو ليس كتاب حديث ، ولكن به أحاديث كثيرة ، يقول :

« نُعيم » بضم الميم ، ولشدة تعلق الناس بالحلية لمّا ألف : بيع بأربعمائة دينار .

ولا يأخذ الشيخ الحفنى أحاديث الجامع الصغير على أنها مسلمة صحيحة أو حسنة وإنما يزنها بموازين المحدثين ومن ذلك الحديث التالى :

إن الله تعالى إذا أراد بالعباد نقمة أماتَ الأطفالَ وعقَّم النساء فتنزل بهم النقمة وليس فيهم مرحوم : الشيرازى فى الألقاب عن حذيفة وعمار بن ياسر معًا .

(قوله نقمة) أى انتقامًا . وهذا الحديث موضوع كما نقله الحافظ بن حجر . ويدل لوضعه ما ورد فى البخارى : « أنهلك وفينا الصالحون يا رسول الله ؟ فقال : نعم ، إذا كثر الخبث » فهو يدل على حصول الانتقام ولو مع وجود أهل الرحمة من الصلحاء والأطفال ، فيعارض معنى هذا الحديث ، ولا يحتاج إلى تأويل حديث البخارى إلا لو صح هذا ، وما ورد لولا شيوخ ركع .. إلخ . لا ينافيه لأن حصول الرحمة بسبب هؤلاء لا ينافى أنه قد ينزل بنا وبهم الانتقام فى بعض الأحيان ، وقوله وعقم النساء بتشديد القاف يقال عقم كفرح ونصر وكرم ، وعنى وعقمها الله وأعقمها ورحم معقومة أى مسدودة لا تلد ا . هـ بخط بعض الفضلاء والمؤلفون يفتتحون كتبهم بحديث :

« إنَّما الأعمالُ بالنيات » .

وكان البادئ بذلك هو الإمام البخارى حينما بدأ رحمه الله تعالى صحيحة بهذا الحديث الشريف .

وقد ذكر الإمام السيوطى هذا الحديث فى ختام مقدمته وتحدث الإمام الحفنى عن هذا الحديث من جهة السند ومن جهة المعنى فقال عن السند : قوله « عن أبى سعيد » الخدرى ، وقوله ابن عساكر بالرفع ، أى ورواه ابن عساكر عن أنس بن مالك ، وكذا الرشيد ، أى رواه الرشيد عن أبى هريرة ، فهو مروى عن أربعة من الصحابة : عمر بن الخطاب ، وأبى سعيد ، وأنس ، وأبى هريرة ، لكن لم يصح غير طريق عمر رضى الله تعالى عنه ، فذكر المصنف للثلاثة الأُخر يوهم أنها صحيحة أيضًا مع أنه تُكلِّم فى أسانيدها بالضعف ، إلا أن يقال : ذكرهم : لاتفاق الأربعة على لفظ الحديث ، أى فهذه الطريق وإن كانت ضعيفة لم تخالف الطريقة الصحيحة ، ولا يقال : إن هذا الحديث رواه نيف وثلاثون صحابيا فلم اقتصر على الأربعة ؟ لأنهم إنما رووا حديث النية ولم يذكروا هذا اللفظ بتمامه كالأربعة فلذا اقتصر عليهم ؟ »[1] . ا . هـ .

أما من جهة المعنى فإنه يقول :

« وقوله : « إنَّما الأعمالُ .. الخ » ختم خطبته بهذا الحديث اقتداء بالسلف والخلفاء الأربعة فإنهم ذكروه فى خطبهم على المنبر فاقتدت بهم المؤلفون ، وجعلوه آخرًا من الخطبة وإشارة إلى أنه ينبغى للشارع فى تأليف أن يحرر نيته فيه .

(١) الحفنى على الجامع الصغير جـ ٦ .

« قوله بالنيات » أى لا أعمال إلا بنية ، أى لا صحة ، أو لا فضيلة وكمال : إذ صورة العمل توجد بدون نية ، والمراد الأعمال المتصفة بالعبادة ، فخرج نية الكافر فلا تصح إذ عمله لا يتصف بالعبادة ، والمراد غالبًا ، فلا يرد نحو الصدقة ، والوقف ، وغسل الميت ، وإزالة النجاسة ، وترك الزنا ، فإن ذلك يصح بدون نية ، لكن لا يحصل الثواب إلا إذا نوى ذلك فلا يحصل له ثواب إزالة النجاسة إلا إذا قصد امتثال الشارع فى الواجبة والمندوبة ، وقس الباقى »[1] .

ويقول :

قوله : (فَمنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ) هذا بيان للسبب فى الحديث وتوضيح لما يترتب على الجّملتين السابقتين وزجر للمهاجر بهذا القصد ، فإنه لا ينبغى التلبس بالطاعة ظاهرًا وفى الباطن قصد غيرها فالذم إنما جاءه من جهة أنه فى الظاهر مهاجر لله ورسوله وفى الباطن قاصد غير ذلك فلا يقال : إن تحصيل الدنيا مباح لا يذم عليه بل يكون عبادة إن قصد بتحصيل النكاح الإعفاف مثلاً أو قصد بتحصيل المال كفاية عياله . وأصل الهجرة الانتقال من وطنه إلى مكان آخر ، والمراد هنا المكان المعنوى لا الحسى ، أى من كان انتقاله من شهوات نفسه إلى طاعة الله تعالى .. الخ ..

« قوله لِدُنْيا » فى رواية إلى دنيا ويجوز كسر الدال ، وهى جميع المخلوقات وذلك أظهر من القول بأنها الأرض وما عليها

---

(١) الحفنى على الجامع الصغير ص ٦ .

والجو والهواءُ لخروج السماء وأهلها ، وتطلق الدنيا على الذهب والفضة ، وعلى ما يتمتع به ويتبسط به من ذهب أو فضة أو امرأة أو ملبوس ، وهذا الأخير هو المراد هنا[1] .

ويصحح الشيخ الحفنى بعض الأحاديث التى تدور على ألسنة بعض العامة بزيادة لفظ يفسد معناها وذلك مثل :

« حُبِّبَ إلىَّ مِنْ دنياكُمُ النِّساءُ وَالطِّيبُ وَجعلتُ قرَّة عَيْنِى فِى الصَّلاَة » رواه أحمد وغيره عن أنس .

فإن العامة تقول : « حبب إلى من دنياكم ثلاث » .

(قوله حُببَ) لم يقل أُحْببت إشارة إلى أن جبلته ﷺ مجبولة على حب أمور الآخرة دون أمور الدنيا ، ولكن الله تعالى حببه لهذين الشيئين من أمور الدنيا لكثرة ما يترتب عليهما من الخير ، فإن النساء يترتب على حبهن كثرة التناسل ، وأيضًا هناك أمور يستحيا من ذكرها فلم يبلغنا تشريعها إلا من زوجاته ﷺ ، فلولا محبة النساء وتزوجه بهن لما بلغنا ذلك ، والطيب وإن كان فيه تنعم فى الدنيا إلا أنه قوت أرواح الملائكة ، وأيضًا طيب النساء يترتب عليه جماعهن المترتب عليه كثرة النسل ، وما اشتهر من زيادة لفظ ثلاث هكذا حبب إلى من دنياكم ثلاث لا أصل له : إذ لفظ ثلاث يغير المعنى لأنه إنما ذكر اثنين وفصل الأخير بقوله وجعلت قرة الخ ، فالصلاة وإن كانت تقع فى الدنيا إلا أنه ﷺ مجبول على حبها لا أنها حببت إليه ، وفى قوله دنياكم دون دنياى أو دنيانا إشارة إلى أنه ﷺ إنما يضاف إليه أمور الآخرة .

(١) الحفنى على الجامع الصغير ص ٦ .

ويحل الشيخ رضى الله عنه الكثير من المسائل التى تثير جدلا كثيرا بألفاظ يسيرة ووضوح فى الحل وذلك مثل « يمين الرحمن » فى الحديث التالى :

« إِنَّ الْمُقْسِطِين عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ على مَنابِرَ مِنْ نورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحمنِ وكلتْا يديْهِ يَمِين : الَّذين يَعْدلونَ فى حُكْمِهِم وأَهْلِيهمْ وما ولوا » الإمام أحمد وغيره : عن ابن عمرو .

(قوله مَنَابر مِنْ نُور) من النبر وهو الارتفاع فسميت بذلك لارتفاعها وهذا حقيقة ، ويحتمل أنه كناية عن ارتفاع مراتبهم عنده تعالى كمن هو مرتفع فوق منبر .

(قوله عنْ يمين الرَّحْمن) مذهب السلف أن ذلك عبارة عن صفة تسمى يمين الرحمن لا تعلم حقيقتها ، ومذهب الخلف يؤولون ذلك بأن المراد شدة قربهم منه تعالى قربا معنويًّا ولما كان يتوهم من إثبات اليمين إثبات اليسار دفع ذلك بقوله وكلتا يديه يمين والتثنية ليست على حقيقتها بل المراد التكثير على حد لبيك ، أى جميع صفاته يمين أى جميل ، وذلك أن تجرى الاستعارة التمثيلية : حيث شبه حال هؤلاء بحال خدام ملك بذلوا الجهد فى خدمته فقدم لهم كراسى وأجلسهم عليها غاية الإكرام .

(قوله وَمَا وُلُوا) بضم الواو وتشديد اللام أو بفتح الواو وتخفيف اللام وعلى كل عطفه على حكمهم من عطف العام أى عدلوا فى حكم القضاء وفيما ولوا عليه ولو غير حكم القضاء كنظر على وقف .

ويتحدث شيخنا عن بعض زوايا الإصلاح فى المجتمع : فمن ذلك شرحه للأحاديث الشريفة التالية :

« إِنَّا لَن نَسْتَعْمِلَ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَه » الإمام أحمد وغيره عن أبى موسى (قوله إنَّا لنْ) وفى رواية لا نستعمل ، وسبب الحديث أن أبا موسى الأشعرى دخل مع ابنى عمه ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله إن البلاد كلها لك فأمرنا على بعض البلدان ، وقال الآخر مثله ، فذكر الحديث : أى لأن من أراد الإمارة وطلبها كان فيه ريبة ، فمن أراد شيئًا وكل لنفسه ، ومن أريد منه شىء أعانه الله عليه ، وفرق ما بينهما فمن طلب القضاء ونحوه من السلطان لم يجبه إلا إذا تعين للقضاء ، أو كان مستحقًّا فى بيت المال ولم يصل إلى حقه إلا بالتولية ، أو كان خاملاً ولا يمكنه نشر علومه إلا بهذه التولية فيجاب فى هذه الأحوال الثلاثة ، وما عداها يرد فيحمل هذا الحديث على أن ابنى عم أبى موسى الأشعرى ليس فيهما أحد الخصال الثلاث .

« تَداوُوا عِبَادَ الله فإنَّ الله تَعالى لَم يضعْ داء إلا وَضَعَ لهُ دَواءً غير دَاءٍ واحدٍ الْهرم » . (الإمام أحمد وغيره) عن أسامة بن شريك .

(قوله تداوُوا إلخ) فلا ينبغى إهمال التداوى للتوكل ولذا مرض سيدنا موسى فقالت له بنو إسرائيل تداو بكذا فقال لا أتداوى بقولكم بل بالوحى وإنما أنتظر الشفاء من الله تعالى فلم يحصل له الشفاء ، فنزل الوحى عليه أتريد أن تبطل حكمتى التى وضعتها فى العقاقير فمن خلق العقاقير غيرى ، فأنا الذى خلقتها وأخلق الشفاء عند تعاطيها ، ولا يرد على ذلك قول الصديق رضى الله تعالى عنه حين

قالوا له أنأتى لك بطبيب ؟ فقال : إنه نظر لى ، فقالوا له : ماذا قال ، فقال : قال لى : أنا الفعال لما أريد ، أى لأنه علم بنور قلبه أنه قرب أجله فلم ينفعه الدواء ، وكذا أهل الله تعالى منهم من يطلعه الله تعالى على عدم نفعه بالدواء فيتركه ، أما من لم يبلغ هذا المقام فلا يترك التداوى نظرًا للتوكل .

« تعلَّمُوا الْعِلْمَ وتَعلَّموا لِلْعِلْم السَّكِينَةَ وَالْوقَار وتَوَاضَعُوا لمن تَعلمونَ مِنه » الطبرانى فى الأوسط وغيره : عن أبى هريرة .

(قوله تَعلَّمُوا العلم) أى خذوا فى أسباب المعرفة للعلوم النافعة من العلوم الشرعية وآلاتها ، وقوله الوقار أى المهابة : فلا يفعل ما يخل بالمروءة فضلاً عن العدالة ، فالعالم الذى يؤخذ العلم من كلامه وشربه وملبسه ودابته ، ومعنى أخذ العلم من الدابة أن لا يحملها ما لا تطيق ، وأن لا يجيعها وهكذا ، وقس على ذلك .

(قوله لِمَنْ تَعلَمُونَ مِنهُ) ولذا كان إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه لا يقلب الورق بحضرة سيدنا مالك خوفًا من سماعه قرقعته أدبًا معه ، وكان يفتخر بمشيخة سيدنا مالك وهو يفتخر بتلمذته . وكان الربيع الجيزى لا يشرب الماء بحضرة إمامنا خوفًا من سماعه صوته أدبًا معه ، وكان بعض العلماء لاتسأله تلامذته إلا بعد قولهم له : أتأذن لنا فى السؤال عن كذا ؟ وقد أخذ ابن عباس رضى الله عنهما بركاب سيدنا زيد لكونه شيخه .

« إنَّ الله تَعالى يقول : « أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدى بِى إن خيرًا فَخَيْر وإنْ شَرًّا فَشَرٌ » . (الطبرانى فى الأوسط وغيره) : عن واثلة .

(قوله عِند ظَنّ عبدى إلخ) يحتمل أن المراد بالظن حقيقته أى الطرف الراجح ، أى إذا ترجح عنده أنى أغفر له إذا استغفر ، وأتوب عليه إذا تاب ، وأرزقه إذا طلب الرزق ، وأعافيه إذا طلب الصحة إلخ .

وإذا ترجح عنده أنى لا أغفر له الخ كان كذلك وهو معنى إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

ويحتمل أن المراد بالظن العلم واليقين ، ويكون إشارة إلى التوحيد الخالص ، أى إذا علم عبدى وتيقن أنى متصف بالغفران والإعطاء الخ أعطيته ذلك بخلاف ما إذا كان عنده ريبة فى اتصافى بذلك فلا ينال منى ما طلبه ، وفى هذا الحديث إشارة إلى طلب الرجاء ، ولذا قال بعض الأمراء لبعض العلماء ما تقول فى مالنا وفى إنفاقنا له فى الخير ، فسكت الشيخ متأملاً فى جواب مناسب ثم أجاب بقوله : أصبح الأمير عالمًا بأن من اكتسب مالاً من حلال وأنفقه فى الخير كان موفقًا سعيدًا .

فقال الأمير أنا أحسن ظنا بالله منكم . فأنت تعلم أنى أكتسب من الشبه ، وإنما سترت العبارة عنى ، فقال الشيخ أسألك بالله أتعلم أن رسول الله ﷺ أحسن ظنًّا بالله من جميع خلقه قال نعم . فقال هل كان يكتسب من الشبهات فقال لا .

فقال ينبغى لك أن تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ ، فهذا من الشيخ لطف وهو شأن من اجتمع بالأمراء فينبغى له الملاطفة معهم .

وموقف شيخنا من الصحابة هو موقف أهل السنة على وجه العموم ولقد شرحه بمناسبة الأحاديث التالية :

« أَبُو بَكْرٍ وعُمر سَيِّدَا كُهول أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأولين والآخَرين إلا النَّبِيِّين والْمرسَلين » (الإمام أحمد وغيره) عن على عن أبى جحيفة .

« أبو بَكْر وعُمَر مِنِّى بمنزِلَة السَّمع والْبَصَر مِن الرَّأْسِ » (ع) عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه عن جده قال ابن عبد البر وماله غيره (حل) عن ابن عباس (خط) عن جابر .

« أبو بكر خَير النَّاسِ إلا أن يكون نبىّ » (طب عد) عن سلمة بن الأكوع .

« أبو بكْر صَاحبى ومؤْنِسى فى الغار سدُّوا كلَّ خُوخَة فى المسْجد غَيْر خُوخَةِ أبى بكْر » (عم) عن ابن عباس .

« أبو بكْر مِنِّى وأَنا مِنْهُ وأبو بكْر أخى فى الدّنْيا والآخِرة » (فر) عن عائشة .

« أبو بَكْر فى الجنَّةِ ، وعمر فى الجَنَّة ، وعُثْمَان فى الجَنَّة وَعَلى فى الْجنَّةِ ، وَطَلْحَة فى الْجَنَّة ، والزُّبيْر فى الجنَّة ، وَعبْد الرَّحمن بن عَوْفٍ فى الْجَنَّةِ ، وسَعْد بن أبى وقَّاص فى الجنَّة ، وسعيد بن زَيْد فى الجنَّة ، وأبو عُبَيدة بن الجرَّاح فى الجنة » ، (الإمام أحمد وغيره) عن سعيد بن زيد ، (والترمذى) عن عبد الرحمن ابن عوف ص ١٧ ويشرح الشيخ ذلك فيقول قوله (كهول) : الأحسن أنَّ المراد بالكهول الشجعان الكرماء لا حقيقتهم باعتبار وقت الموت كما قال الشارح لأن ذاك أبلغ فى المدح (قوله بمنزلة السمع الخ)

أى أنتفع بهما كنفعى بالسمع إلخ ، أو أحبهما كما أحب سمعى الخ ، ولا يقال إنه ﷺ ينتفع جميع الناس به ولا ينبغى أن يقال ينتفع هو بالناس ، لأنا نقول هذا قاله ﷺ بيانًا لفضلهما ، ولم تقله الأمة حتى يعترض بذلك (قوله المطلب) بصيغة الفاعل : عزيزى وقوله : أبو بكر كان اسمه عبد الكعبة ، فسماه ﷺ : عبد الله ، وهو له صحبة ، وكذا لأبويه وولده وولد ولده صحبة ولم يجتمع هذا لأحد من الصحابة ، وروى مائة واثنين وأربعين حديثًا ، له فى الصحيحين ثمانية عشرة ، انفرد البخارى بأحد عشر ، ومسلم بواحد . (قوله : إلا أن يكون) أى وجد نبى فهى تامة . (قوله غير خوخة) بالنصب صفة لكل وفيه إشارة إلى أن أبا بكر يكون خليفة بعده ﷺ فيحتاج للمسجد (قوله أبو بكر فى الجنة إلخ) لم يجمع من المبشرين بالجنة فى عبارة إلا العشرة المذكورين فلا ينافى أنه بشر غيرهم كالحسنين وأمهما وجدتهما خديجة رضى الله تعالى عنهم ، ومعنى البشارة بذلك عدم دخولهم النار ، فلا ينافى أنه يمكن لهم حصول مشقة الحساب والموقف ، فلذا كانوا على شدة خوف ، على أنه يمكن أن خوفهم لظنهم أن هذه البشارة معلقة على وجود أمر منهم ولم يوجد ، وإنما ذكر لفظ فى الجنة بعد كل مع أنه يكفى ذكرها آخرًا فيقول أبو بكر وعمر الخ فى الجنة لأن المقام مقام إطناب لأنه للرد على الزاعمين أن بعضهم من أهل النار ، ووقاص بالتشديد .

وعن سيدنا على يشرح الحديث التالى :

« على عيبة علمى » (عد) عن ابن عباس .

(قوله عيبة علمى) أى وعاء علمى الحافظ له فإنه مدينة العلم ، ولذا كانت الصحابة تحتاج إليه فى فك المشكلات ، ولذا كان يسأله سيدنا معاوية فى زمن الواقعة عن المشكلات فيجيبه ، فتقول له جماعته : مالك تجيب عدونا ، فيقول : أما يكفيكم أنه يحتاج إلينا ، ووقع له فك مشكلات مع سيدنا عمر ، فقال : ما أبقانى الله إلى أن أدرك قومًا ليس فيهم ابو الحسن ، أو كما قال فقد طلب أن لا يعيش بعده ، وقد حصل ، وجاء رجل لسيدنا عمر وهو يطوف وقال له :

خذ لى حقى من علىّ فقد لطمنى لطمة ، فلما سأله سيدنا عمر عن لطمه ، قال : نعم لطمته لكونه يتطلع إلى النساء ، فقال لقد أحسنت يا أبا الحسن .

وقد أمر سيدنا عمر برجم زانية فمر عليها سيدنا على فى أثناء الرجم فخلصها ، فلما أخبر سيدنا عمر بذلك قال : إنه لا يفعل ذلك إلا عن شىء ، فلما سأله قال : إنها مبتلاة بنى فلان ، أى مصابة بالجنون ، فلعل وقت زناها كانت مجنونة ، أى والشبهة تسقط الحد ، وقد قال ﷺ :

« رفعَ الْقَلَمُ عنْ ثلاثَة ، عَن الصَّبِىِّ حتَّى يَبْلُغ وَعَنِ النَّائمِ حتَّى يَستيقظ وَعَنِ الْمَجنُونِ حَتَّى يبْرأ » فقال سيدنا عمر : لولا علىّ لهلك عمر .

وعن الصحابة على وجه العموم يشرح الحديث التالى :

« إذا أَرَاد الله بِرُجلٍ من أمَّتى خيرًا أَلْقىَ حبَّ أَصْحَابى فى قَلبه »(١) .

(قوله حب أصحابى فى قلبه) أى جميع أصحابى لا فرق بين من عاشره ﷺ ، وبين غيره ، لأنه إذا اجتمع شخص به ﷺ لحظة حصل له نور فى قلبه بسببه يتصف بالعدالة ، وإن حصل منه هفوة تاب لوقته .

وقول الماوردى : إن الحث على المحبة العظيمة إنما هى فيمن عاشره ﷺ ، أما من اجتمع به لحظة فقط فهو وإن طلبت محبته لكنها لم يحث عليها لعدم اتصافه بالعدالة بمجرد اجتماع اللحظة مردود »(٢) .

« إذَا أَرَادَ الله بقَوْمٍ عَذابًا أصاب الْعذابُ منْ كانَ فيهِم ثُمَّ بعثُوا عَلى أعمَالهم »(٣) .

« قوله من كان فيهم » أى من استحق منهم ممن فعل المعصية أو رضى بها أو لم يرض لكن قدر على إزالتها ، ولم يفعل ، وظاهر هذا الحديث أن البلاء لاينزل على الطائعين منهم وهو يخالف قوله : ﴿وَاتَّقُوا فتنْةً لا تُصيبنَّ الَّذِينَ ظلموا منْكُمْ خَاصَّة﴾ .

ويجمع بأن الحديث محمول على ما إذا لم تغن المعاصى وتعم . والآية محمولة على ما لو فشت ، فإن البلاء حينئذ يعم الطائعين

---

(١) النسائى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) الحاشية ص ٦٠ .

(٣) البخارى ومسلم عن ابن عمر .

وغيرهم لكنه نقمة للعاصين ، أو تطهير لهم ، وثواب للطائعين ، يدل على هذا الجمع حديث :

« أنُهلَكُ وفينا الصالحون ؟ قَال : نَعَم إنْ كَثرَ الْخَبِيث » .

أى إن فشت المعاصى وكثرت فيهلك الجميع من صالح وغيره .

قوله « على أعمالهم » أى للعقاب عليها فعذاب الدنيا لكونه نقمة لا يدفع عذاب الآخرة ، أى لم يعف عنهم »[1] .

عن ابن عمر : « اسْتَقيموا ولَنْ تحْصُوا واعْلمُوا أنَّ خَيْرَ أعمَالكُم الصلاة ، وَلاَ يُحَافظ عَلَى الوُضُوء إلا مُؤمِنٌ » الإمام أحمد وغيره عن ثوبان وعن ابن عمر وعن سلمة بن الأكواع .

(قوله واعلموا إلخ) أشار إلى أن من لم يقدر على أنواع الاستقامة فليحرص على أقوى أسباب الاستقامة وهو الصلاة والوضوء ، وأطلق الوضوء ليشمل الطهارة الحسية والمعنوية .

قال العلقمى خاتمة قال السهيلى رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت له : روى عنك يارسول الله أنك قلت شيبتنى هود فما الذى شيبك منها ؟ أشيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟

فقال لا ، ولكن إنما شيبنى قوله تعالى : ﴿فَاستَقمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[2] .

إذ قوله « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة ، فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه فإذا سمع كما أمرت

---

(١) الحاشية ص ٦١ .

(٢) هود : ١١٢ .

علم أنه طولب باستقامة تليق بمعرفته بكمال الأمر ، وحقيق لمن فهم ذلك أن يشيب إذ لا يطيق أحد أن يأتى بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه ، بل لابد أن يستصغر جميع ما يأتى به وإن كان كاملاً بالإضافة إلى عظمته ولذلك لما نزل : ﴿اتقوا الله حقَّ تُقَاته ﴾[1] قلقت الصحابة خوفًا من كونهم لايقدرون على القيام بمعنى ذلك فأنزل الله رحمة لهم : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا استطعتُم﴾[2] .

انتهى بحروفه بخط الشيخ عبد البر الأجهورى .

« إن فيكَ لخصلتَين يحبُّهما الله تعالَى : الْحِلْم والأَناة» : (الإمام مسلم والإمام الترمذى) . عن ابن عباس ، (قوله إنَّ فيكَ) خطاب للأشجِّ : لأنه ﷺ كان جالسًا مع عمر وبعض الصحابة ، فقال ﷺ : سيقدم عليكم ركب من خير خلق الله تعالى ، فقام سيدنا عمر وبادر إلى لقائهم ، فقال لهم : من أنتم ؟ فأخبروه ، فقال : قد أثنى عليكم رسول الله ﷺ وسلم وذكركم بخير ، فلما قدموا بادروا إلى مقابلته ﷺ بثياب السفر إلا الأشج ، فتأتى إلى أن لبس أحسن الثياب ، وتنظف لأن شأن الدخول على الملوك أن يكون على أحسن الأحوال ، فلما قدم ﷺ وجلس يتحدث فأمعن المصطفى النظر لوجهه لكونه غير جميل ، ففهم ، فقال له : يارسول الله إنما يراد من الرجل الأوفران عقله ولسانه ، وأما الجمال فهو للنساء ، فقال له ﷺ أريد مبايعتك وقومك على الإسلام ونصر الحق ، فقال له :أعلم أن اعتناءك بالدين ، أما أنا ومن معى فنبايعك على ذلك ، وأما قومى فنعلمهم بذلك فإن

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

(٢) التغابن : ١٦ .

أجابوا فذاك وإلا قاتلناهم ، فقال له ﷺ : صدقت ، فعلم وفارة عقله من كلامه ، والأناة من تأنيه فى القدوم عليه ﷺ فذكر له الحديث ، فقال : هاتان الصفتان خلقتَ بهما أم اكتسبتهما يارسول الله ؟ فقال : بل خلقت بهما . فقال الحمد لله الذى جعل فىّ صفتين يحبهما هو ورسوله .

(قوله الحلم) أى العقل وينشأ عنه العفو وغيره من الخصال الحميدة .

« إنَّمَا أَنا بَشَرٌ تَدَمْعُ الْعين ويَخْشع الْقلْب ولا نَقُولُ ما يُسخِطُ الرَّب والله يا إبراهيمُ إنَّا بِكَ لَمَحْزُونونَ » (ابن سعد عن محمود بن لبيد) .

(قوله وَيَخْشَعُ القلْبُ) أى يخضع ويذل إظهارًا لصفة الشفقة والرأفة ، والحاصل أن أهل الله تعالى قسمان : قسم تظهر عليه صفة العبودية ، فيرضى بالقضاء ، ويظهر البشر عند المصيبة ، وقسم تظهر عليه صفة الشفقة والرحمة ، فتدمع عينه ، ويخشع قلبه حينئذ ، ولذا روى بعضهم يضحك عند المصيبة ، فقيل له : لم ؟ فقال : خفت أن تغلب على صفة الرحمة فأظهرت صفة العبودية ، ولما كان ﷺ فيه الصفتان ، وهو آمن من غلبة إحداهما على الأخرى ، أظهر كلاً منهما ، فأشار إلى إظهار صفة العبودية بقوله ولا نقول ما يسخط الرب ، وأظهر الثانية بدمع العين .

« حُسْنُ الْمَلِكَةِ يُمْنٌ ، وسُوءُ الْخُلُق شُؤْمٌ ، وطَاعَةُ الْمَرْأة نَدَامةٌ والصَّدَقة تَدْفَع الْقضاء السُّوء » (ابن عساكر عن جابر) .

(قوله ندامة) أى لنقص عقلهن ودينهن فلا ينبغى لشخص أن يفعل ما أشارت به عليه امرأة حيث لم يعلم أنه خير .

(قوله تدْفع الْقضاء) أى تمنع البلاء ولذا احتطب شخص ففك حطبه فإذا فيه أفعى ، فقيل له : ماذا صنعت حتى نجاك الله منها ؟ فقال : تصدقت بكسرة ، والمراد بمنع البلاء بأن ترفعه إن كان معلقًا ، وتخففه إن كان مبرمًا ، وحكى أن بعض السلاطين أمر بشخص ليقتله ، فجيءَ به وقد تصدق فى طريقه بنصف رغيف ، وقال : إنه ﷺ قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة : ونار السلطان أخف من نار جهنم ، فهذا يرفعها بالأولى ، فلما قدم عليه والناس مجتمعون أمره بالانصراف ، فسأله بعض أعوان السلطان ماذا صنع نجا ، فأخبره بما وقع ، وقال : إن نصفَ الرغيف أكبر من نصف التمرة ، ونار السلطان أخف من نار جهنم . وهكذا شأن المخلصين .

« إذا قضى أحَدكُمْ الصَّلاةَ فى مَسْجده فَلْيَجْعَلْ لِبيتْهِ نَصيبًا مِنْ صلاَتِه فإنَّ الله تَعالى جاعِلٌ فى بيته مِنْ صلاَتِهِ خيْرًا » .

رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما (حم م ه) عن جابر وعن أنس .

(قوله فليجعل لبيته الخ) أى فالأفضل صلاة النفل فى البيت إلا ما استثنى ، قال العلقمى : فليجعل الفرض فى المسجد والنافلة فى البيت : لحديث « أفْضل الصَّلاَة صلاَةُ المرء فى بيته إلاَّ الْمكْتوبة » وإنما حث على النافلة فى البيت لكونه أخفى وأبعد عن الرياء وأصون من المحبطات ، وتبرك أهل البيت بذلك ، وتترك فيه الرحمة والملائكة ،

وتنفر الشياطين ، قلت إلا ما استثنى من النوافل كسنة الجمعة القبلية ، وركعتى الإحرام والطواف ، وصلاة الضحى ، والاستخارة ، وصلاة منشئ السفر ، والقادم منه ، والمكث فى المسجد لتعلم أو تعليم ، أو اعتكاف ، والخائف فوت الراتبة ا . هـ

« إِنَّ اللهَ تعَالى تجاوَزَ لأُمَّتى عَمَّا حدَّثت بِهِ أَنْفُسُهَا مَالَمْ تُكلِّم بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ » (ق ٤) عن أبى هريرة (طب) عن عمران بن حصين .

(قوله أنفسها) بالرفع وهو ظاهر وبالنصب على التجريد بأن يجرد شخصا من نفسه ويحدثها ، والحاصل أن المراتب خمسة : هاجس ، وخاطر ، وحديث نفس ، وهم ، وعزم ، فالشيء إذا وقع فى القلب ابتداء ولم يجل فى النفس سمى هاجسًا ، فإذا كان موفقًا ودفعه من أول الأمر لم يحتج إلى المراتب التى بعده ، فإذا جال أى تردد فى نفسه بعد وقوعه ابتداءً ولم يتحدث بفعل ولا عدمه : سمى خاطرًا . فإذا حدثته نفسه بأن يفعل أو لا يفعل على حد سواءُ من غير ترجيح لأحدهما على الآخر سمى حديث نفس ، فهذه الثلاثة لاعقاب عليها إن كانت فى الشر ولا ثواب عليها إن كانت فى الخير ، فإذا فعل ذلك عوقب أو أثيب على الفعل ، لا على الهاجس والخاطر وحديث النفس ، فإذا حدثته نفسه بالفعل وعدمه مع ترجيح الفعل لكن ليس ترجيحًا قويًّا بل هو مرجوح كالوهم سمى هما ، فهذا يثاب عليه إن كان فى الخير ولايعاقب عليه إن كان فى الشر ، فإذا قوى ترجح الفعل حتى صار — جازمًا مصممًا بحيث لا يقدر على الترك سمى عزمًا فهذا يثاب عليه إن كان فى الخير ويعاقب عليه إن كان فى الشر .

« إذا شَهِدَتْ إحداكنَّ الْعشَاء فَلاَ تمس طيبًا » رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما عن زينب الثقفية .

(قوله فلا تمس طيبا) أى لأن ذلك يورث الفتنة : لأن الطيب يهيج الشهوة .

ومثل العشاء وغيرها .

وكذلك الخروج ولو لغير صلاة .

وإنما قيد بالعشاء لأن تطيب النساء لا يكون إلا ليلاً .

وقوله إذا شهدت أى أرادت حضورها مع الجماعة وعبارة العلقمى قال النووى معناه إذا أرادت شهودها ، أما من شهدتها ثم عادت إلى بيتها فلا تمنع من التطيب بعد ذلك ا . هـ .

« إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَليعْلمْه أَنَّهُ يُحبُّه » رواه الإمام أحمد وغيره عن المقداد بن معد يكرب وعن أنس .

(قوله أخاه) أى فى الإسلام فليعلمه ندبًا مؤكدًا ، بأن يقول : له إنى أحبك . وينبعى الجواب بأن يقول له : أحبك الله كما أحببتنى لله تعالى ، ومحل ذلك إن كان يحبه لله تعالى كأن كان : لعلمه أو صلاحه ، فإن كان لأجل إعطاء مال ونحوه فلا يطلب أخباره بأنه يحبه لأن ذلك يزول بقطع ذلك ، والمراد بالأخ الشخصى ذكرا كان أو أنثى ، ومحله إذا كان ذكرًا مع ذكر ، وأنثى مع أنثى ، أو ذكر مع أنثى محرم أو زوجة ، فإن كانت أجنبية وأحبها لله تعالى كصلاحها فلا ينبغى إعلامها لما فيه من الريبة ، قال الغزالى إنما أمر الرجل بإعلامه بحبه لأن يوجب زيادة الحب : فإن الرجل إذا

عرف أن أخاه يحبه أحبه بالطبع لا محالة ، ثم إذا عرف أيضًا أنه يحبه ازداد حبه لا محالة ، فلا يزال الحب يتزايد بين المحبين ، وذلك مطلوب بالشرع انتهى بخط الأجهورى ، ص ٥٧ .

« إذَا أُصابَ أَحَدُكُم مُصِيبَةٌ فلْيَذْكُر مصيبَتَه بى فَإنَّها مِن أَعظَمِ الْمَصائب » عن ابن عباس .

(قوله من أعظم) لا ينافى هذا أنها أعظم على الأطلاق لأن كون الشيء من أعظم الأمور لاينافى أنه أعظمها على الإطلاق ، فقد ورد أنه ﷺ كان من أحسن الناس وجهًا أو خلقًا ، ولا شك أنه أحسنهم على الإطلاق ، وإنما كان ذلك أعظم المصائب لأنه ترتب عليه انقطاع الوحى الذى هو رحمة ، ونقص الأنوار التى فى قلوب الصحابة بسبب طلعته ﷺ : ولذا قال أنس ما نفضنا أيدينا من التراب من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا ، أى لم نجد فيها من النور ما كان النور قبل موته ﷺ ولا ينافى كون موته ﷺ أعظم المصائب بسبب انقطاع الخير المذكور ما يأتى أن موته ﷺ قبل أمته خير لهم لأن الجهة مختلفة : إذ كون موته ﷺ يترتب عليه انقطاع الخير المذكور لا ينافى أنه يخلفه خير غيره وهو تهيىء المراتب لأمته ، والاستغفار لهم إذا عرضت عليهم سيآتهم ، فموته ﷺ قبل أمته خير بهذا الاعتبار .

وكتب العلقمى على قوله من أعظم المصائب أى أعظم من كل مصيبة يضرُّ بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ، انقطع بموته ﷺ الوحى ، وماتت النبوة ، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه ا . هـ ص ٦٧ .

« إذا انتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِس فَلْيُسَلِّم فإنْ بَدَا لَهُ أَنْ يجلِس فَلْيَجْلِس ثُمَّ إذا قَامَ فَلْيُسَلِّم فَلَيْسَت الأُولَى بِأَحَقّ مِن الآخرَة » رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة .

(قوله ثم إذا قام فليسلم) ويجب عليهم الرد ، أى لأن السلام الأول معناه أمنتكم من شرى حال حضورى ، فيسن السلام عند الانصراف ليؤمنهم من شره حال غيبته بل أولى ، ويؤخذ من هذا التعليل أنه لوجاء وسلم عليهم ووقف لحظة ثم أراد أن ينصرف من غير أن يجلس سنَّ له السلام قبل الانصراف وهو كذلك وإجماع المسلمين أن ابتداء السلام سنة وأن رده فرض ، وأقله السلام عليك ، والأفضل السلام عليكم ، وأكمل منه أن يزيد ورحمة الله وبركاته ، ولو قال سلام عليكم أجزأه ويشترط إسماع له برفع الصوت به بحيث يسمع كل منهما واتصال الرد بالابتداء كاتصال الإيجاب بالقبول فى العقود ، والإلزام ترك جواب الرد ، فإن كان هناك نيام خفض صوته بحيث لا يتيقظون انتهت علقمى .

وقوله وأقله السلام عليك قال العزيزى : لعل مراده إذا سلم على واحد ولا يكفى رد صبى مع وجود مكلف ، والفرق بينه وبين الصلاة على الميت حيث يكتفى بصلاة الصبى مع وجود الرجال ، أن القصد بالصلاة على الميت الدعاءُ ودعاءُ الصبى أقرب إلى الإجابة ، والقصد بالسلام الأمان والصبى ليس أهلاً له ، وفى الحديث دلالة على أنه يسلم قبل أن يجلس وقياسه أن يسلم قبل أن يقوم .

قلت وفى رواية أبى داود فإذا أراد أن يقوم فليسلم وهى صريحة فى ذلك فلتحمل هذه عليها انتهى بحروفه : ص ٧٤ .

« إذا دَخَلَ شهرُ رَمضَان فُتحَت أَبْوَابُ الْجَنَّة وغُلِقَت أَبْوَابُ جَهنَّم وسُلْسِلَت الشَّيَاطِين » رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة .

(قوله فتحت أبواب الجنة) كناية عن هبوط غيث الرحمة وتوالى صعود الطاعة بلا مانع ، وكذلك تغليق أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الآثام ، ورمضان مأخوذ من الرمضة وهو الحر لأنه تحرق فيه الذنوب وتزول عن صائمه .

(قوله وسلسلت) أى غلت حقيقة ، أو أنه كناية عن عدم تجرئهم على الصائمين ، فالمراد بالسلسلة لازمها ، وأما ما يقع فى رمضان من الوسوسة فهو من النفس ، أو من الرئيس من الشياطين لأنه منطلق ، وقال الشارح سلسلت : أى قيدت وشدت بالأغلال كيلا توسوس للصائم ، وآية ذلك إمساك أكثر المنهمكين فى الطغيان عن الذنوب ، وعبارة العزيزى : وسلسلت الشياطين ، أى قيدت وشدت بالأغلال لئلا توسوس للصائم ، وآية ذلك أى علامته إمساك أكثر المنهمكين فى الطغيان عن الذنوب فيه ، وفى نسخة شرح عليها العلقمى صفدت بدل سلسلت بالصاد المهملة المضمومة بعدها فاءُ ثقيلة مكسورة أى شدت بالأصفاد وهى الأغلال .

قال شيخنا : قال القاضى يحتمل أنه يحمل على ظاهره حقيقة ويحتمل المجاز . ويكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغراؤهم وإيذاؤهم فيصيرون كالمقيدين قال : ويحتمل أن يكون

فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات فى هذا الشهر مما لا يقع فى غيره عمومًا كالصيام والقيام وفعل الخيرات والانكفاف عن كثير من المخالفات ، وهذه أسباب لدخول الجنة وكذلك تغليق أبواب النار .

وقال القرطبى يصح حمله على الحقيقة ، ويكون معناه أن الجنة قد فتحت وزخرفت لمن مات فى رمضان لفضل هذه العبادة الواقعة فيه وغلقت عنهم أبواب النار فلا يدخلها منهم أحد مات فيه ، وصفدت الشياطين لئلا تفسد على الصائمين . فإن قيل : قد نرى الشرور والمعاصى تقع فى رمضان كثيرًا فلو كانت الشياطين مُصَفَّدة ما وقع شر ، فالجواب من أوجه :

أحدها : إنما تغل عن الصائمين إذا حوفظ على شروطه ، وروعيت آدابه أما إذا لم يحافظ عليها فلا يغل عن فاعله الشيطان .

الثانى : لو سلم أنها مصفدة عن كل صائم فلا يلزم أن لا يقع شر لأن لوقوعه أسبابًا أُخر غير الشياطين ، وهى النفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الأنسية .

والثالث : أن المراد غالب الشياطين والمردة منهم ، وأما غيرهم فقد لا يصفدون ؛ والمراد تقليل الشرور ، وذلك موجود فى رمضان ، فإن وقوع الشرور والفواحش فيه قليل بالنسبة إلى غيره من الشهور .

أما عن آل البيت فيقول الشيخ :

والمراد بآل البيت كل تقى لا خصوص الأشراف لحديث : « آل البيت كل تقى » .

الكرامات

وبعد : فإن كرامات الشيخ كثيرة ، مشهورة ، ذكر بعضها الجبرتى وجمعها الشيخ حسن شمه فى كتابه الكبير الذى لم يطبع وذكر بعضها فى مختصره .

وأما صاحب كتاب « كرامات الأولياء » فإنه ذكر منها مقدارًا مستفيضًا ، ومن هذه الكرامات ماذكره الشيخ حسن بقوله :

« وأخبرنى أستاذى نفسه رضى الله عنه ، أنه متى نام على جوع غالبًا يرى فى نومه موائد قدمت بين يديه فيأكل وينبسط ، ثم يستيقظ فيجد اثر ذلك الأكل والشبع ، قلت : لا يخفى أن هذا من الأطوار المحمدية المشار إليه بقوله ﷺ : « إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

ومن كراماته : أن ظالما من حكام مصر بلغه أن عند بعض جماعة الشيخ خاتمًا فصَّهُ ثمين جدا فأرسل إليه يطلبه ، فما وسعه إلا إرساله إليه خوفًا منه ، لكن قال للرسول المرسل به : مر على حضرة أستاذنا الحفناوى وقل له :

إن فلانا أرسلنى إلى تابعك فلان فى شأن خاتم عزيز عليه ، وها هو قد أرسل به إليه ، فمر به الرسول ، وكان جالسًا على المائدة فقام وامتزج بجلال وصار يقول :

ما كان يحتاج يا فلان ويسمى ذلك الظالم ظلم فلان ، يكرر ذلك ثم قال :

نطلب من أهل الله أن يضيقوا عليه مصر ضيق الخاتم ، فما لبث ذلك الظالم إلا قليلاً حتى أخلع من مصر ، وضاقت عليه حتى لم يجد له من سبيل إلى أحد فيها ، فما وسعه إلا الهروب ، فتولى الفرار وتاه فى الفضاء والقفار .

ومنها أن أحد مريديه تذاكر مع آخر الدنيا ومن الكيمياء الذى يحول المعادن إلى ذهب ، يقول : « وتواعدنا بالاشتغال بذلك ، ثم جئنا إلى الشيخ وجلسنا عنده ، فذكر الكيمياء والدنيا ، وقال :

إن هى إلا هَوَسَان وخزعبلات ، ثم أُنشَد .

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها تريد أم الدنيا وما فى زواياها
لقال غبار من تراب نعالها أحب إلى قلبى وأشفى لبلواها

والشيخ فى هذا الشعر يقول لهما :

إن المحب الصادق هو الذى يكون قلبه معلقًا بالله تعالى لا بغيره .

وفــاته

وأما بعد : فقد توفى الشيخ رضى الله عنه ، يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١١٨١هـ ، وقد بلغ الثمانين من حياته المباركة ، توفاه الله بعد جهاد طويل فى سبيله ، لم يقصر فيه ولم يفتر .

ودفن يوم الأحد بقرافة المجاورين بالقاهرة .

يقول الشيخ حسن شمه :

« وضريحه مشهور ، بزيارته تضاعف الأجور ، رضى الله عنه ، ونفعنا به فى الدارين » ثم أما بعد : فيقول الله تعالى :

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُم الْبُشْرَى فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِى الآخِرة ، لا تَبْدِيل لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾[1] .

القاهرة فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٣٩٦ هـ

القاهرة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٧٦ هـ

---

(١) يونس : ٦٢ – ٦٤ .

خاتمة

التصوف الإسلامى
وحياة أبى الأنوار رضى الله عنه

سئل الشبلى رحمه الله :

لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟

فقال : لبقايا بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء ولا تعلقت بهم !

إن التصوف فى قمته العليا هو : ألا تبقى على الإنسان بقية من نفسه ، أى : ألا تبقى عليه بقية من نزعات ، أو شهوات ، أو مطامع ، أو تطلعات إلى غير الحق والخير .

ومن معالم ما يقوله الصوفية فى هذا الطريق :

إن السالك يأخذ فى إزالة الرذائل من نفسه شيئًا فشيئًا ، وتتهافت الرذائل واحدة بعد الأخرى ، ولكن رذيلة تظل معتصمة بقوتها فى النفس ولا تزول بسهولة ، تلك هى رذيلة : « حب الرياسة » ، وحينما تزول فإن السالك يصبح خالصًا لله تعالى ، فإنه وهو يجاهد فى إزالة الرذائل يجاهد فى الوقت نفسه فى التحلى بالفضائل .

وهذا الطريق - طريق محو الرذائل والتحلى بالفضائل حتى يصبح

خالصًا لله تعالى – يعبر عنه الجنيد حينما سئل عن تعريف التصوف فقال :

« التصوف أن يُميتَك الْحَقُّ عنْكَ ويُحْيِيكَ بهِ » .

والحق هو الله تعالى ، يقول سبحانه :

﴿وَيَعْلمون أنَّ الله هُوَ الْحَقُّ الْمُبين﴾[1] .

و « يميتك عنك » أى يمحو نفسك الأمارة ، يمحو كل ما فيك من نزعات الكبرياء ، بل يمحو مجرد الرغبة فى الإثم .

وأما « يحييك به » فإنه التخلق بأخلاق الله تعالى :

أخلاق الجمال !

إنه سبحانه فى صفاته الجمالية : السلام ، المؤمن ، الغفار ، العدل ، اللطيف ، الكريم ، الحليم ، الرؤوف الرحيم ..

فإذا أماتك الحق عنك ، وأحياك به فقد أصبحت صوفيًّا ، بما فى قمة الصوفية ! وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة فإنه يكون قد ارتبط بالله تعالى برباط وثيق أو أصبح كما يقول رويم بن أحمد حينما سئل عن تعريف التصوف . « التَّصوُّف : الاسْتِرْسَالُ مَع الله على مَا يُرِيدُه » .

وحينما يسترسل الإنسان مع الله على ما يريده الله تعالى فإنه لا تكون له رغبة إلا فيما أمر الله تعالى به ، أو فيما أباحه ، ولا تكون له كراهية إلا فيما نهى الله تعالى عنه : نهى وجوب ، أو نهى

---

(١) النور : ٢٥ .

كراهية ! وهذا المعنى هو الذى أراده أبو يزيد - رضى الله عنه - حينما قال معرفًا بالصوفى :

« للنَّاسِ أَحْوالٌ ، ولا حَال للعارِفِ ، لأنه مُحيَت رُسُومه ، وفنيَت هَوِيته بِهَوِيَّة غَيْره ، وغُيِّرت آثاره بآثارِ غَيْره » !

والعارف فى عرف أبى يزيد : هو الصوفى ، و« الغير » الذى عناه أبو يزيد : هو الله سبحانه وتعالى ، وقل فى المعنى : « أَماتَه الْحَق عَنه وَأَحْياه به » أو قل « تَخلَّق بِأخلاق الله أو قل : إنه استجاب لقوله تعالى :

﴿فَاسْتقِمْ كَما أُمِرْتَ ، وَمَنْ تَاب مَعَكَ﴾(١) أو قل فى المعنى : إنَّهُ اسْتَرْسل مَعَ الله تعالى على ما أَرَاده ، إن كل ذلك يمكن أن يكون شرحًا لما أراده أبو يزيد !

ويتناسق الإمام : « أبو يعقوب » مع كل هذه المعانى فيقول معرفًا بالتصَوف :

« التَّصوف حَالٌ تَضْمَحلُّ معها معالم الإنسَانية » .

والمعنى لذلك : أن تكون بشرية الإنسان - التى تسيطر عليه ، فتكون هى القائدة ، وتستولى عليه ، فتكون هى المتصرفة - تضعف شيئًا فشيئًا لتحل محلها الربانية ، إنها تضمحل ! أتدرى ما هى الربانية !

إن الله سبحانه وتعالى يقول مبينًا وموضحًا :

﴿ما كانَ لِبشَرٍ أَنْ يؤتِيهُ الله الْكِتَاب والْحُكْم والنُّبوَّة ، ثم يقُول

---

(١) هود : ١١٢ .

لِلناسِ كونوا عِبادًا لى مِنْ دونِ الله ، ولكِنْ كونُوا ربَّانِيين بما كُنتُمْ تُعلمُون الْكِتاب ، وبِما كُنُتم تَدرُسونَ﴾[1] .

و « الربانيون » فى العرف الإسلامى – أعنى العرف الصادق – كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما ، هم :

« الْفُقهاءُ الْمعَلِّمونَ » .

ويقول قتادة : « هُم الْفُقهاءُ الْعُلمَاءُ الْحكَمَاء » .

ويقول سيدنا على كرم الله وجهه :

« هُم الَّذين يُغَذُّونَ النَّاس بالْحِكْمة ، ويُرَبُّونهُمْ عليها » وقد ذكر أسلافنا كثيرًا من الأقوال فى معنى الربانيين ، منها أيضًا أنهم « الْعُلماءُ بالْحلاَلِ والْحرام » .

ومنها : « إنَّهُم الذين جمعوا بينَ عِلْم الْبصِيرة ، والْعِلم بِسياسةِ الناس » .

ويقول سيبويه :

« الربانىُّ : الْمنسوب إلَى الرب ، بمعنى كونه عالمًا به ، ومواظِبًا على طَاعتِه » .

ولما مات حبر الأُمة ابن عباس – رضى الله عنه – قال محمد بن الحنفية – رضى الله عنه – :

اليوم مات ربانى هذه الأُمَّة » !

---

(١) آل عمران : ٧٩ .

وتفسير الربانى مهما تعدد واختلف ، فإن معناه لا يتعارض ، وإنما ينسجم ويتناسق ، ولا ينفى بعضه بعضًا ، والقرآن الكريم يشير إلى معنى ربانى حينما يقول : ﴿بِمَا كُنتُم تُعلِّمُون الْكِتاب ، وَبِما كنتُمْ تَدرُسُونَ﴾ فالربانى : يعلم الكتاب ويدرسه ، ويعمل به ، فيصبح وثيق الصلة بالجو الروحى : جو الكتاب والوحى ، ومن أتاه الله الكتاب والحكم والنبوة لا يأمر الناس أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ، وهل يتأتى أن يأمر الناس بالكفر بعد أن يكونوا مسلمين ؟ !

هذه « الربانية » هى المقصودة من كل التعاريف التى ذكرناها فيما مر وهذه التعاريف تتناسق جميعًا لتؤدى فى الذهن معنى كلمة « إسلام » أو هى فى الحقيقة منبثقة من كلمة إسلام !

ما معنى كلمة « إسلام » ومن هو : « المسلم » .

أما إذا نظرت إلى المعنى اللغوى فإن ابن الانبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ يقول فى المعنى اللغوى للكلمة :

« المسلم معناه : المخلص فى عبادته ، من قولهم : سلم الشىء لفلان ، خلص له : فالإسلام معناه :

إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى » .

هذا هو المعنى لكلمة « مسلم » وهو المعنى الذى حاول فى خلاص أن يصل إلى تحقيقه كل الصوفية .

وهذا المعنى متناسق تمامًا مع المعنى الذى تحدث عنه الرسول ﷺ حينما سئل :

« ما هُو الإسلاَم » ؟

فقال : « الإسلاَمُ أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم الْمُسْلِمون مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ » .

وإسلام القلب هو : الاستسلام الكامل لله تعالى فيما أمر ، والاستسلام الكامل لله تعالى فيما نهى بتجنبه ، ومن هنا كان نتيجة طبيعية ينبه عليها كعلامة لصدق إسلام القلب لله تعالى وهى :

أن يسلم المسلمون من لسان من أُسلم قلبه لله ، ومن يده ! والنتيجة الدقيقة لإسلام القلب لله تعالى - فى سعتها وشمولها - تَتَمَثَّل فى قول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿قلْ إن صلاَتِى ونُسكِى ، ومَحْياى وَمَمَاتِى لله ربٌ العَالِمين ، لاَشَريك له ، وبذلك أمرت وأَنا أَوَّل المسْلمين﴾[1] .

وهذا الشعار إنما هو المنارة التى يسير نحوها كل مسلم ! وإذا كان الأمر لرسول الله ﷺ ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه : الأسوة والقدوة لكل مسلم ، وكل مسلم إذن عليه أن يسعى فى جد ليجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له !

إنه لن يصل إلى تحقيق ذلك كاملاً كما تحقق به الرسول ﷺ ، ولكن عليه أن يسعى ، وأن يستمر فى السعى ، ويجتهد فى السعى !

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وعن ذلك الأسلوب يقول الإمام الجنيد فى حديثه عن التصوف إنه « عنوة لاصلح فيها » .

أى أنه جهاد لا انقطاع له : جهاد فى سبيل الله ، جهاد لله ، جهاد يستمر ما استمرت الحياة .

وإسلام القلب لله تعالى ، والاسترسال مع الله تعالى على ما يريده الله تعالى :

هو التوحيد الصادق .

والشبلى حينما سئل عن التصوف قال :

« بدؤه معرفته ، ونهايته توحيده » .

والرئيس ابن سينا يتحدث عن جهاد الصوفى فى سيره للقرب من الله سبحانه وتعالى ، ويختم حديثه عن الجهاد بقوله عن غاية الصوفى من جهاده الذى لا صلح فيه :

« منته إلى الواحد » إن غاية الصوفى هى :

التحقق بالتوحيد . ومن هنا قول الصوفية فى تعبيراتهم الجميلة : « التوحيد واحد ، والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

التوحيد الذى هو الغاية واحد لا اختلاف فيه ولكن الطرق التى يسلكها المريدون تتعدد وتختلف ، ولا بأس من تعددها واختلافها مادامت تنتهى جميعًا إلى « التوحيد » وللصوفية فى ذلك تمثيل دقيق : التمثيل بالدائرة والمركز : دائرة تمتد من محيطها خطوط ، هذه الخطوط حينما تبتدئ من المحيط متباعدة قليلاً ، ولكنها تتقارب

كلما قربت من المركز حتى إذا ما وصلت إليه التقت واتحدت فى نقطة المركز ، والمركز هو « التوحيد » والخطوط هى الطرق .

ومن هذا كله نتبين أن :

التصوف هو : الإسلام فى صورته المثلى ، وأنه مذهب واحد هو « التوحيد » .

وبيانا لهذا المذهب الواحد كانت حياة أبى الأنوار شيخ الإسلام : الحفنى ، كانت حياته سلوكًا بيانًا لهذا المذهب ، وكانت حياته علمًا بيانًا لهذا المذهب .

ويمكن أن نقول : كانت حياته تعبيرًا عن إسلام القلب لله رضى الله عنه ونفعنا به .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع		١٩٩٦/٥٥٨٩
الترقيم الدولى	977 - 02 - 5278 - 6	ISBN

١/٩٣/٩٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.) ١٩٩٧م



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن فى شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دار المعارف

٠٣١٩٣٠/٠١